العنوان:	غزل ابن حزم : دراسة في جدل السيرة والشعر
المؤلف الرئيسي:	أيوب، علي مصطفى محمد
مؤلفين آخرين:	عليان، مصطفى(مشرف)
التاريخ الميلادي:	2005
موقع:	الزرقاء
الصفحات:	1 - 218
رقم MD:	749009
نوع المحتوى:	رسائل جامعية
اللغة:	Arabic
الدرجة العلمية:	رسالة ماجستير
الجامعة:	الجامعة الهاشمية
الكلية:	عمادة البحث العلمي والدراسات العليا
الدولة:	الاردن
قواعد المعلومات:	Dissertations
مواضيع:	الشعر، السيرة، المفكرين الإسلاميين، ابن حزم
رابط:	http://search.mandumah.com/Record/749009

© 2024 المنظومة. جميع الحقوق محفوظة.
هذه المادة متاحة بناء على الإتفاق الموقع مع أصحاب حقوق النشر، علما أن جميع حقوق النشر محفوظة. يمكنك تحميل أو طباعة هذه المادة للاستخدام الشخصي فقط، ويمنع النسخ أو التحويل أو النشر عبر أي وسيلة (مثل مواقع الانترنت أو البريد الالكتروني) دون تصريح خطي من أصحاب حقوق النشر أو المنظومة.

للإستشهاد بهذا البحث قم بنسخ البيانات التالية حسب إسلوب الإستشهاد المطلوب:

إسلوب APA

أيوب، علي مصطفى محمد، و عليان، مصطفى. (2005).غزل ابن حزم: دراسة في جدل السيرة والشعر (رسالة ماجستير غير منشورة). الجامعة الهاشمية، الزرقاء. مسترجع من http://search.mandumah.com/Record/749009

إسلوب MLA

أيوب، علي مصطفى محمد، و مصطفى عليان. "غزل ابن حزم: دراسة في جدل السيرة والشعر" رسالة ماجستير. الجامعة الهاشمية، الزرقاء، 2005. مسترجع من http://search.mandumah.com/Record/749009

© 2024 المنظومة. جميع الحقوق محفوظة.
هذه المادة متاحة بناء على الإتفاق الموقع مع أصحاب حقوق النشر، علما أن جميع حقوق النشر محفوظة. يمكنك تحميل أو طباعة هذه المادة للاستخدام الشخصي فقط، ويمنع النسخ أو التحويل أو النشر عبر أي وسيلة (مثل مواقع الانترنت أو البريد الالكتروني) دون تصريح خطي من أصحاب حقوق النشر أو المنظومة.

الفصل الثانـي

المبحث الأول : سِيَرُ الطوق وأخباره

المبحث الثانـي :

جَدَل السيرة والشعر (التجربة الشعرية في الطوق)

المبحث الثالث : جدل النقد والشعر

المبحث الأول

سير الطوق وأخباره

أولاً : أهمية دراسة هذه السِّيَر

طوق الحمامة كتاب أدبي خالص ، ولكن إلى جانب ذلك ، نظر العديد من الدارسين إلى هذا الأثر من جوانب أخرى ، هي في حقيقتها جاءت لتخدم الجانب الرئيسي الأول ، وتساعد في تكامل هدفه.

فقد عدّ بعضهم كتاب طوق الحمامة دراسة نفسية ، تتناول عاطفة الحب عند الإنسان ، بالبحث الذي يعتمد إلى حد كبير على التجربة والملاحظة والتحليل النفسي واستخلاص النتائج [1] ، وذهب آخرون إلى أنّ أهمية الطوق تنبع من قيمته التاريخية [2] ، وذلك من خلال تلك الأخبار المتتالية التي يسردها فيه ، فتصور لنا المجتمع الأندلسي في قرطبة خاصة ، وفي الأندلس عامة [3].

والحقيقة أنّ الجانبين كلاهما ؛ النفسيَّ والتاريخيَّ كان رافداً مهماً استخدمه ابن حزم بمهارة ، لإخراج هذا الكتاب في الحبّ كما أراد له أن يكون ، وربما يمكننا أن نقول : إنه لو اقتصر على أحدهما دون الآخر في خدمة هذا النص الأدبي ، لخرج

---

(1) انظر: أحمد هيكل ، الأدب الأندلسي ، ص395، وزكريا إبراهيم ، ابن حزم الأندلسي، ص232 وما بعدها ، والطاهر مكي ، دراسات عن ابن حزم ، ص 224 – 238 .

(2) انظر : عبد الحليم عويس ، ابن حزم الأندلسي ، ص48– 49، والطاهر مكي ، دراسات عن ابن حزم ، ص168، بحث للمستشرق سانتشت ألبرنس بعنوان " ابن حزم، قمة إسبانية " قال فيه: " أنكر أسين بلاثيوس أن طوق الحمامة دراسة نفسية ، وأوضح قيمته التاريخية".

(3) انظر : عبد الحليم عويس، ابن حزم الأندلسي ، ص 49.

كتابه قاصراً عن الغاية التي يرمي إليها، ولما كان له هذا الصدى الواسع بين جميع الكتب التي تناولت هذه العاطفة.

وما يُهِمُّنا هنا ؛ هو ذلك الجانب التاريخي الذي قام – كما سبق– على الكثير من الروايات والقصص والأخبار التي استدعاها ابن حزم من ذاكرته.

وتنبع أهمية دراسة هذه الأخبار من أنها تلقي الضوء على الكثير من شعره الذي ورد في طوق الحمامة ، حيث يمكن لأي قارئ متبصّر أن يدرك أبعاد تعلق هذا الشعر بهذه الأخبار ، وهو ما سيتم تناوله في المبحث القادم إن شاء الله.

وهذه الأخبار التي أكثر منها ابن حزم ؛ تعبّر عن منهجه الذي اختطه لنفسه ، قبل أن يشرع في كتابه، وأشار إليه في مقدمته، حين يقول :" والذي كلفتني به، لا بدّ فيه من ذكر ما شاهدته حضرتي ، وأدركته عنايتي ، وحدثني به الثقات من أهل زماني"[1].

ويعود مرة أخرى ليؤكد هذا المعنى فيقول: " والتزمت في كتابي هذا الوقوف عند حدِّك ، والاقتصار على ما رأيت ، أو صحّ عندي بنقل الثقات.."[2].

إذن فهو منذ البداية يوضّح لصاحبه أنّ من عناصر منهجه الرئيسيّة في وضع هذا الكتاب ، الاستشهاد بالأخبار والروايات والقصص على معاني الحبِّ العامة ،

---

(1) ابن حزم، طوق الحمامة، ص87.

(2) المصدر نفسه، ص87.

وعلى أسبابه وأعراضه ، وما يقع فيه وله على سبيل الحقيقة [1] على حدّ قوله .

فابن حزم يسوق هذه الأخبار شواهد في الباب الذي تكون مناسبة له ، وهو بهذا يحقّق لكتابه عدّة جوانبَ مفيدةٍ منها : أنّ كلامه في الحبّ لا يظل نظرياً ، بل يؤيده بالشواهد العلمية والوقائع الحقيقيَّة ، ثم إنّ هذه الأخبار تمنح القارئ شيئاً من المتعة والتسلية والطرافة ، وبخاصةٍ أنها في غالبها أخبار غير مبتذلة ، لم تتداولها كتب الأدب القديمة التي ذكرت قصص المحبين وأخبارهم .

وحين ننظر في كلام ابن حزم السابق ، نجده يحدّد بوضوح المصادر التي يعتمد عليها في نقل هذه الأخبار، وهي كما قال : أصدقاؤه وأصحابه ومعارفه الذين يثق بهم، وكان من بين هؤلاء نصيبٌ لا بأس به من النساء في رواية أخبار المحبين، ولا يكتفي بهذه المصادر في نقل الأخبار ، بل يعتمد أيضاً على نفسه فيروي ما شاهده عياناً ، أو أدركته عنايته ، كما يضيف إلى ذلك كلّه ما مر به هو شخصياً من تجارب في الحب وما حصل معه من حوادث يمكن أن تكون مناسبة لموضوعه.

ثانياً : أصناف السِّيَر والأخبار

وعند مطالعة الطوق ، وتتبع هذه الأخبار التي تناهز المائة ، نرى ابن حزم يأخذ في روايتها منهجاً لا يحيد عنه فيها جميعاً ؛ ذلك أنه كان حريصاً على ذكر

---

(1) ابن حزم، طوق الحمامة، ص86.

الوسيلة التي حصل بواسطتها على أحد الأخبار [1] ، وبناءً على ذلك فيمكن تصنيفها في ثلاثة أصناف رئيسية تدخل تحتها معظم الروايات.

فهناك أخبار يبدؤها بقوله: " **حدثني**، أو **أخبرني**" أو "**أخبرتني** أو **حدثتني** " إن كان مصدره امرأة [2]، وتكررت هذه الألفاظ في سبعةٍ وعشرين موضعاً من طوق الحمامة [3]، ومن ذلك قوله مثلاً: " وحدثني جعفر مولى أحمد بن محمد بن حدير، المعروف بالبلبيني ، أنّ سبب اختلاط مروان بن يحيى بن أحمد حدير وذهاب عقله، اعتلاقه بجارية لأخيه ، فمنعها منه ، وباعها لغيره، وما كان في إخوته مثلُه، ولا أتمّ أدباً منه" [4] فقد ذكر في صدر هذا الخبر اسم الشخص الذي حدّثه به، وهو جعفر مولى أحمد بن محمد بن حُدير .

ويغلب على هذا الصنف من الرواية أمران ، أحدهما: أنه لا يذكر اسم شيخه أو صديقه الذي يروي عنه الخبر، فهو لا يحدّث عن أحدٍ في العادة إلا ويسند إليه ما رواه عنه ، وحين لا يفعل ذلك، فإنه يستعيض عنه بأن ينبه القارئ إلى أنّ من يُحدث عنه، إنّما هو ثقة يؤخذ عنه ، ويُطمَأن إلى روايته، وهذا دليل على حرص ابن حزم على أن تكون روايته موثوقة وصحيحة ومقبولة لدى القارئ ، ومن ذلك قوله مثلاً: "

---

(1) تسمّى هذه الوسائل عند المحدِّثين بـ " طرق تحمل الرواية وأدائها" انظر: نور الدين عتر، منهج النقد في علوم الحديث، ص214.

(2) وهو ما يسمى عند المحدِّثين بالسماع، وهو أرفع طرق تحمّل الرواية عندهم، انظر : همام سعيد، الفكر المنهجي عند المحدثين ، ص73.

(3) انظر: ابن حزم، طوق الحمامة، 92، 101، 120، 150، 155، 187، 188، 189، 208، 214، 232، 235، 241، 242، 260، 262، 264، 268، 270، 281، 284، 296، 297، 298، 307.

(4) المصدر نفسه، ص242-243.

ولقد حدثني ثقة من إخواني ، جليلٌ ، من أهل البيوتات ، أنّه علِق في صباه جارية كانت في بعض دور آله، وكان ممنوعاً منها، فهام عقله بها، قال لي: فتنزهنا يوماً إلى بعض ضياعنا بالسهلة، غربي قرطبة، مع بعض أعمامي، فتمشينا في البساتين، وأبعدنا عن المنازل، وانبسطنا على الأنهار، إلى أن غيمت السماء، وأقبل الغيث، فلم يكن بالحضرة من الغطاء ما يكفي الجميع، قال: فأمر عمي ببعض الأغطية، فألقيَ علي، وأمرها بالاكتنان معي..." [1] وظاهر أن ابن حزمٍ يروي هذا الخبر عن ثقة من إخوانه، جليل القدر، لا يُظَنّ فيه الكذب.

أما الأمر الثاني الذي يغلب على هذا الصنف ، فهو أنَّ ابن حزم في معظم هذه الأخبار يصرِّحُ بأسماءِ أصحابِها الذين وَقَعَتْ لهم، ولا يتجاهل صاحِب الخبر إلاّ بتحقق الشرط الذي شرطه على نفسه في المقدمة ، حين قال مخاطباً صديقه : " فاغتفر لي الكناية عن الأسماء ، فهي إمَّا عورةٌ لا نستجيزُ كشفها ، وإما نحفظ في ذلك صديقاً ودوداً أو رجلاً جليلاً ، وبحسبي أن أسمي من لا ضرر في تسميته ، ولا يلحقنا والمسمى عيبٌ في ذكره ؛ إما لاشتهارٍ لا يغني عنه الطيُّ وترك التبيين، وإمَّا لرضى المُخْبَر عنه بظهور خبره ، وقلة إنكارٍ منه لنَقْلِه"[2].

---

(1) ابن حزم ، طوق الحمامة، ص188-189.

(2) المصدر نفسه، ص87.

ومعنى ذلك أن هذا الصنف من الأخبار ؛ إما أن يكون مشتهراً بحيث لا يغني إخفاء اسم أصحابها شيئاً ، أو أنهم راضون بظهورها، غير منكرين لانتشارها، وهذا أمرٌ يعرفه ابن حزم وحده ويقدّره.

ومما تجنب فيه ذكر صاحب الخبر، قوله في باب القنوع: " ومن القنوع، أن يقنع المحبّ بالنظر إلى الجدران، ورؤية الحيطان التي تحتوي على من يحب، وقد رأينا من هذه صفته، ولقد حدثني أبو الوليد أحمد بن إسحاق الخازن –رحمه الله– ، عن رجل جليل، أنّه حدّث عن نفسه بمثل هذا".[1]

ومما يظهر فيه أنّ صاحب الخبر راضٍ بظهور خبره قول ابن حزم: " وحدثني موسى بن عاصم بن عمرو ، قال: كنت بين يدي أبي الفتح والدي ، رحمه الله، وقد أمرني بكتاب أكتبه، إذ لمحت عيني جارية كنتُ أكلف بها، فلم أملك نفسي، ورميت الكتاب عن يدي، وبادرت نحوها.

وبُهِتَ أبي، وظنّ أنه عرض لي عارض، ثم راجعني عقلي، فمسحتُ وجهي، ثم عدت واعتذرت بأنه غلبني الرُّعاف"[2].

وصنف ثانٍ من الرواية ، هو في ظني أوثق من سابقه؛ لأن المصدر هو ابن حزم نفسه ، وهي تلك المواقف والأخبار التي اطلع عليها ، ورآها بنفسه، ولذلك فهو ينقلها إلينا كما رآها لتكون شواهد على المعنى الذي يتحدث عنه، وبما أن وسيلته في

---

(1) ابن حزم ، طوق الحمامة، ص235–236.

(2) المصدر نفسه ، ص150.

الحصول عليها هو الرؤية المباشرة ، فإنه يعلق هذه الأخبار دائماً ، مبتدئاً بقوله :" **شاهدتُ** و **رأيتُ** " ، وتكررت هذه الألفاظ في طوق الحمامة في اثنين وعشرين موضعاً تقريباً [1].

ومن المؤكد أن هذه الروايات هي من مشاهدات ابن حزم الخاصة ، التي أتاحتها له حياته بين النساء في القصور ، وخارجها ، وقد كان من العسير أن نظفر بمثل هذه التجارب الحيّة الواقعية، لولا دقّة ابن حزم، وقوة حافظته ، وحسن تمثيله ، ومنهقوله:" ومما يدخُل في هذا الباب، شيء رأيته ورآه غيري معي ، أنّ رجلاً من إخواني ، جرحه من كان يُحِبُّه بِمُدية، فلقد رأيته وهو يقبِّل مكان الجرح، ويندُبه مرة بعد مرة "[2].

وقوله أيضاً: " ولقد شاهدت هذا بعينه لبعض المحبين مع بعض من كان يُحب ، وكان المحبوب شديد المراقبة ، عظيم الكتمان ، وكثر الوشاة بينهما ، حتى ظهرت أعلام ذلك في وجهه، وحُدّث في حب لم يكن ، وركبته رحمة، وأظلته فكرة، ودهمته حيرة، إلى أن ضاق صدره ، وباح بما نُقِل إليه، فلو شاهدْتَ مقام المُحِبِّ في اعتذاره ، لعلمت أن الهوى سلطانٌ مطاع، وبناءٌ مشدود الأواخي، وسنان نافذ، وكان اعتذاره بين

---

(1) ابن حزم ، طوق الحمامة، ص115، 124، 140، 160، 162، 166، 167، 168، 171، 185، 186، 198، 202، 206، 222، 223، 226، 231، 243، 280، 282.

(2) المصدر نفسه، ص231.

الاستسلام والاعتراف ، والإنكار والتوبة ، والرمي بالمقاليد ، فبعد لأْيٍ ما صَلَح الأمرُ بينهما"[1].

وحين تكون مشاهداته متعددة ، وتدور في معنًى واحد ، يستغني بالتمثيل بواحدة أو اثنتين أو يقول: " ولقد شاهدت من هذا المعنى كثيراً" [2] أو" وقد رأيت من هذه صفته"[3] أو" ولقد رأيت في بعض المرات هذا"[4].

ولم يذكر ابن حزم في جميع مشاهداته التي قصّها علينا،أسماء من وقعت لهم سوى اثنين في موضعين [5]وكأنه كان حذراً من ذكر أسمائهم؛لأن المسؤولية المباشرة في نشر هذه الأخبار تقع على عاتقه، وربما لم يكن غيره قد اطلع عليها أصلاً.

وصِنْفٌ ثالِثٌ من الأخبار ، هو الأكثر شيوعاً في الطوق ، يُسندها ابن حزم لنفسه ، وهو عادة يبدؤها ، بقوله: " **أعلم** ، **أعرف** ، **علمت** " وقد تكررت أمثال هذه الألفاظ في ثلاثةٍ وثلاثين موضعاً من الطوق[6] ويختلف هذا الصنف عن سابقَيه ، أنَّ ابن حزمٍ لم يبيِّن الوسيلة التي حصل بواسطتها على هذه الأخبار، " فأعلم وأعرف" لفظان يحتملان أن يكون الخبر سماعاً أو رؤية مباشرة أو إدراكاً عقلياً ، ومن أمثلة

---

(1) ابن حزم ، طوق الحمامة ، ص171.

(2) المصدر نفسه، ص186، 223، 243.

(3) المصدر نفسه، ص124، 160، 202.

(4) المصدر نفسه، ص186.

(5) انظر: المصدر نفسه، ص115، 198.

(6) المصدر نفسه، ص 101، 110، 113، 123، 127، 135،130، 140، 143، 145، 151، 154،158، 165، 167، 168، 169، 181، 182، 186، 199، 201، 206، 217، 219، 222، 231، 259،242، 263، 267، 276.

هذه الأخبار، قوله: " وإني لأعلم بعض من كان محبوبه يعده الزيارة، فما كنت أراه إلا جائياً وذاهباً، لا يقرّ به القرار، ولا يثبت في مكان واحد، مقبلاً مُدبراً، قد استخفه السرور بعد ركانة ، وأشاطه بعد رزانة"[1].

وقوله أيضاً: " وأعرف من أتى ليودع محبوبه يوم الفراق ، فوجده قد فات ، فوقف على آثاره ساعةً ، وتردد في الموضع الذي كان فيه ، ثمّ انصرف كئيباً مُتَغَيّر اللون ، كاسف البال ، فما كان بعد أيام قلائل ، حتى اعتلَّ ومات ، رحمه الله"[2].

وربما ذكر في بعض المواضيع الوسيلة التي عرف بها الخبر، كقوله: " ومن أشنع ما شاهدته من الوفاء في هذا المعنى ، وأهوله شأناً ، قصةٌ رأيتها عياناً ، وهو أني أعرف من رضي بقطيعة محبوبه وأعز الناس عليه ، ومن كان الموت عنده أحلى من هجر ساعة ، في جنب طيه لِسِرٍّ أودعه ، والتزم محبوبه يميناً غليظاً لا يكلمه أبداً ، ولا يكون بينهما خبر ، أو يفضح إليه ذلك السر ، على أن صاحب ذلك السّر كان غائباً ، فأبى من ذلك، وتمادى هو على كتمانه، والثاني على هجرانه، إلى أن فرّقت بينهما الأيام"[3].

وفي هذا الصنف من الأخبار أيضاً ، نادراً ما يذكر أسماء شخصيات القصة أو الحادثة ، إلا حين يكون الخبر مشتهراً، بحيث لا يغني عنه الكتمان وترك التبيين، ومن ذلك قوله:" وإني لأعرف من أهل قرطبة من أبناء الكتاب، وجلة الخدمة، من

---

(1) ابن حزم ، طوق الحمامة ، ص110.

(2) المصدر نفسه، ص222.

(3) المصدر نفسه، ص206.

اسمُهُ أحمد بن فتح، كنت أعهده كثير التصاون ، من بغاة العلم ، وطلاب الأدب، يبزّ أصحابه في الانقباض، ويفوقهم في الدعة، لا يُنظر إلا في حلقة فضل، ولا يرى إلا في محفل مَرْضيٍّ ، محمود المذاهب ، جميل الطريقة، بائناً بنفسه ، ذاهباً بها ، ثم أبعدت الأقدار داري من داره ، فأوّل خبر طرأ عليّ ، بعد نزولي شاطبة ، أنه خلع عذاره في حب فتىً من أبناء الفتانين ، يُسمى إبراهيم بن أحمد ، أعرفه..."[1].

ثالثاً : مصداقية السِّيَر والأخبار

وقد طرح أحد الباحثين مسألة مهمة حول هذه الأخبار ، حين قال:" هل كان أبو محمدٍ صادقاً في هذه الأخبار ؟ أو بمعنًى آخر : هل عاين أبو محمد كلّ هذه الوقائع ؟ وهل وقعت صحيحاً أم كانت مولدة لم تورد إلاّ شاهداً في الباب ، كما يخترع المذهبيون شواهد نحوية ولغوية ؟ " [2] .

وهذا التساؤل يتعلق بالصنفين الأخيرين من الأخبار ، أما الأول فإنه – أي الباحث– يرى أنّ " حُكمَها حُكمُ أيِّ خبر أو طريفة ترد في كتب الأدب والتاريخ يتيسر التوثق من صحتها ، بالاقتناع من صدق وثقة الراوي ، ومثل هذه الطرائف لا يمكن إلا أن تكون صحيحة أو مشهورة أو متداولة ، لأنّ أبا محمدٍ لن ينسب إلى معاصريه

---

(1) ابن حزم ، طوق الحمامة، ص151.

(2) هو أبو عبد الرحمن بن عقيل الظاهري ، بحث بعنوان: طوق الحمامة ، مجلة العرب، السنة 3، ج8، الرياض ، 1969 ، ص 730 – 732 ، ثم من قال إننا نقبل من النحاة أن يخترعو ا شواهد من عند أنفسهم ثم يحتجوا بها على مذاهبهم وآرائهم ؟

أخباراً منقولة؛ ولو حدث ذلك لأكذبوه بعد أن يذيع كتابه [1]، ولكنّ المؤرخين مجمعون على صدقه وأمانته[2]!!.

ذلك كلام صحيح ومقبول ، ولكن ما يثير العَجَب ، أن يرى في هذه الأخبار توليداً ذهنياً إذ يقول فيها : " ولكنني لا أزال أعجب من استحضار أبي محمد لهذه الأخبار ، وتبويبها في ذهنه !! وأكثرها ليس بذي خطر، وليس فيه ما يلفت الانتباه ، ولا أستبعد أن يستشهد أبو محمد بأخبار يولدها ذهنه ، على ضوء الواقع المألوف ، وليس في هذا ما يقدح في أمانته – رحمه الله– لأنها طرائف أدبية ، أيّدها بالدرس العلمي، وبما هو متعارف عليه بين الناس.

والدليل على ذلك ، أن أبا محمد يختم كل خبر بمقطوعة من شعره تكلفها للمناسبة ... ودليلٌ آخر: أنّ أبا محمد ذكر في قصيدة له الراح والطنبور ، ثم أكد أنّ الراح والطنبور لم يكن له في يوم ما عادة وخلقاً ، وإنما جاء ذلك وفق قوله تعالى عن الشعراء :" أنهم يقولون ما لا يفعلون ، فادعاء الراح والطنبور ، من كِذْبات أبي محمد المباحة "[3].

وقبل الشروع في التعليق على هذا الرأي، أود أن أشير إلى أنّ أبا محمد كان أكثر عجباً من ابن عقيل الظاهري لتذكره لهذه الأخبار وتبويبها ، وهو ينص على ذلك

---

(1) الصحيح أنهم لا يستطيعون تكذيبه لأن ذيوع الكتب في ذلك الوقت لم يكن بتلك السهولة التي نراها اليوم، ثم إن الطوق كان رسالة إلى أحد أصدقاء ابن حزم، ولا بد أنه ضنّ به لنفسه زمناً، ولم يُطلع عليه أحداً، كما أنّ كتب ابن حزم بالذات تعرضت للاضطهاد والحرق والمطاردة، ورفضت بجملتها.

(2) أبو عبد الرحمن الظاهري ، طوق الحمامة ، مجلة العرب ، ص723– 724.

(3) المصدر نفسه، ص731– 732.

بوضوح في خاتمة كتابه ، فيقول: " وإنّ حفظ شيءٍ وبقاء رسمٍ ، وتذكر فائت ، لمثل خاطري ، لعجب على مضى ودهمني "[1].

ثمّ ما المانع أن يورد ابن حزم أشعاراً له تكلّفها ، بعد أخبارٍ حقيقيَّةٍ وواقعيّةٍ ؟ أيجب أن تكون الأخبار أيضاً مخترعةً ومتكلفةً ، حتى يمكن النظر إلى الشعر بعين الرضى والقبول ؟.

إن هذه النظرة لا تأخذ في حكمها الفرق الجوهري بين الصدق في الشعر والصدق في الروايات التاريخية ، إذ ليس مطلوباً من الشاعر أن يكون صادقاً بالمفهوم الخلقي للصدق ، بينما يُطلب من المؤرخ ، أو ممن يروي أخباراً عن أهل زمانه أن يكون صادقاً ، وهكذا كان ابن حزم ، الذي أكَّد أنّ هذه الأخبار التي يرويها إنما هي مما شاهده بنفسه ، أو صحّ عنده بنقل الثقات من أهل زمانه ، كما أشرت سابقاً.

وقد ذكر أبو عبد الرحمن الظاهري بعض الأدلة التي يمكن أن يتذرع بها من يريد تصحيح هذه الأخبار ، منها؛ أنّ ابن حزم ثقة، ثبتٌ، مأمون، صدوق ، لم يذكر بكذب ، وأنّه قد عاش بين النساء وعلم كثيراً من أسرارهنّ ، فلا يستغرب على من نشأ هذه النشأة في بيتٍ وزاري ، ومجتمع حضاريٍّ أن يأتي بأخبار الحب كلّها[2].

---

(1) ابن حزم ، طوق الحمامة ، ص309.

(2) أبو عبد الرحمن بن عقيل الظاهري ، طوق الحمامة ، مجلة العرب ، ص 730.

وقد كانت تلك الأدلة كافية لإثبات صحة هذه الروايات والأخبار، إذ ذكر أبو عبد الرحمن أنّ المؤرخين مجمعون على صدقه وأمانته ، أفيُعْقل أن يكون صادقاً وأميناً فيما ينقله عن غيره ، ثم لا يكون كذلك فيما يسنده إلى نفسه ؟.

أظن ، أن ابن حزم أجلُّ من أن يسند إلى نفسه أخباراً مصادره ، فيها:" رأيتُ وشاهدتُ ، وعلمتُ ، وأعلمُ وأعرفُ" وهي مخترعة من ذهنه ، وماذا كان يضرّه لو أشار إلى أنّ هذه الأقاصيص إنما هي من تأليفه ، ربما لو فعل ذلك ، لكان مِن أمهر كتاب القصص الفني في الأدب العربي .

وقد كان ابن حزم حريصاً في بعض المواضع على التنبيه إلى صحة مرويّاته ومشاهداته ، كأن يقول مثلاً: " ودونكها تجربة صحيحة ، وخبرة صادقة" [1] أو يقول في باب فضل التعفّف بعد أن ساق عدّة أخبار حول هذا الموضوع: " وما أقدِّر في هذه الأخبار – وهي صحيحة– إلا أحد وجهين..." [2] فلم ينْس أن يستصحب صحة الأخبار في بعض الأحيان ، على الرغم من كثرتها.

إذن فمن الراجح أنّ تلك الأخبار التي أسندها ابن حزم لنفسه ، صحيحةٌ وموثوقة ، بل هي أكثر ثقة من الأخبار التي رواها سماعاً عن غيره ؛ لأن الأخيرة تحتاج إلى البحث في عدالة الرواة الذين يروي عنهم ، بينما ليست هناك حاجةٌ فيما

---

(1) ابن حزم، طوق الحمامة، ص107.

(2) المصدر نفسه، ص297.

أسنده لنفسه إلى البحث في غير عدالته هو ، وقد ثبت أنه رجلٌ مأمون صدوق ، لم يُعرَف عنه الكذب قطُّ .

كانت تلك أهمّ أصناف الرواية الخبرية لديه، وأكثرها شيوعاً في الطوق ، وقد تكررت ألفاظ أُخَرُ في مواضعَ قليلةٍ عند البدء بسرد الخبر ، كأن يقول ابن حزم في بعض الأخبار:" ولعهدي بـ " وقد تكررت هذه العبارة في أربعة مواضع [1] أويقول: " حكاية لم أزل أسمعها " [2] أو " يُحكى" [3] ولا يخفى ما في هذين اللفظين الأخيرين من الدلالة على شيوع الخبر وانتشاره ، وعلى توهين ابن حزم له ، وتقليله من شأن موثوقيته .

وتتفاوت أخباره بين الإيجاز والإطالة ، فبينما تجد بعض الأخبار لا يتعدّى سطراً واحداً ، إذا بك تجد بعضها الآخر يحمل جميع عناصر السرد القصصي ، إذ تطول لتأخذ عدة صفحات ، كخبره عن الأندلسيّ الذي باع جاريته [4].

---

(1) انظر: طوق الحمامة ، ص139، 149، 207، 216.

(2) المصدر نفسه، ص265.

(3) المصدر نفسه، ص 148، وانظر ص 166، حيث يقول : " وقرأت في سِيَر ملوك السودان"، وهي الإشارة الوحيدة التي تظهر فيها القراءة مصدراً من مصادر الرواية لديه .

(4) المصدر نفسه ، ص265، وانظر: تحليلاً لها في دراسة ، محمد المهري ، ابن حزم ناثراً ، ص151 ، وما بعدها

المبحث الثاني

التجربة الشعرية في الطوق

أولاً : مفهوم التجربة الشعريّة :

يشير معظم الدارسين إلى مفهوم متقارب للتجربة الشعرية، وهي أنها: الحالة التي يمر بها الشاعر ، منذ أن انقدحت في نفسه شرارة الموضوع التي دفعته إلى الكتابة، وحتى كتابة القصيدة والفراغ منها ، فهي إذن تمر عبر ثلاث مراحل ؛ المرحلة الأولى الخارجية ؛ ممثلة في الباعث ، ثم المرحلة الثانية الجوانية ؛ وهي ما يعتمل في نفس المبدع من أحاسيس ومشاعر إزاء ذلك الباعث ، ثم المرحلة الأخيرة وهي المرحلة الماديّة التي تتمثل في القصيدة مكتوبة على الورق [1] .

ولا بدّ أن يفكر الشاعر في موضوعها تفكيراً ينم عن عميق شعوره وإحساسه بحيث تتشبع به نفسه ، ويفيض عليه من تأملاته ، حتى يخرجه من عالمه الأرضي، ويحلق به في عالم الشعر البعيد[2].

وفي التجربة الشعرية ليس الموضوع هو المهم ، بل المهم أن يتفاعل الشاعر معه ، وتتأثر به نفسه ويستولي على كيانه ، فيعيشه بنفسه وروحه وفكره ، من أوله إلى نهايته دون رهق أو ضعف.

---

(1) وقد تختصر هذه المراحل في مرحلتين ، هما : الخاطرة الشعورية ، والتعبير الفني .

(2) انظر: محمد غنيمي هلال ، النقد الأدبي الحديث ، ص363 ، وشوقي ضيف ، في النقد الأدبي ، ص144.

ومن هنا فيمكن أن يكون موضوع التجربة الشعرية شيئاً عادياً ، أو تافهاً، أو قبيحاً ، ولكنْ ؛ متى استطاع الشاعر " أن يضفي عليه من شعوره وتصويره وأخيلته القوية ، ما ينفذ به إلى ما فيه من معانٍ جمالية أو إنسانية ، وبقوة المَلَكة الشعرية ، يستطيع أن يجد موضوعات للتجارب الصادقة في كل ما حوله، متى خلع عليها من إحساسه وفاض عليها من خياله"[1].

ولذلك فليس من الصحيح الحكم على موضوعاتٍ ، بأنها ذات طبيعة شعرية وأخرى بأنها لا تصلح للشعر ، إذ إن الشعراء بما منحوه من موهبة ؛ يمكنهم – على تفاوت بينهم – أن يلمحوا فيما يبدو لنا عاديا أو تافها " ما ينمُّ عن مسألة نفسية أو مشكلة اجتماعية ، أو يرى فيه مجالاً لتصوير فني رائع ، يبين عن مشاعره وعواطفه ، وإذن لا نحكم على الموضوع إلا حسب ما عالجه الشاعر من جهة قوّة التصوير ، ثم من جهة قوّة المعاني وجلالها ، وقد يقصِّر شاعرٌ في موضوعٍ عظيم لضعفه ، ويجلي آخر في موضوعات تبدو ولأول وهلة ضعيفة في شاعريتها..."[2]

والحق أن الموضوعات العظيمة ، تمنح التجربة سعة وامتداداً أكثر مما يمكن أن تعطيه موضوعات بسيطة " فموضوع مثل خروج آدم من الجنة قد هيأ لكثير من العباقرة فرصاً شعرية لا يمكن أن تتاح لهم في وصف نافذةٍ مثلاً ؛ ذلك أنّ الموضوع الأول ذو قيمة فنية تثير الخيال ، أكثر مما يثيره الموضوع الثاني... فإذا نظم شاعر

---

(1) محمد غنيمي هلال، النقد الأدبي الحديث، ص363

(2) المصدر نفسه، 368.

فيه – أي الموضوع الأول– شعراً رديئاً ، كان لنا أن نقول إنّه قد قعدت به موهبته الشعرية، ولا ينبغي أن نتهمه بذلك لو أنه لم يجد في وصف محبرةٍ مثلاً"[1].

والمحور الأساس الذي تقوم عليه التجربة الشعريّة ، وإليه يُرْجَعُ عند الحكم على إجادتها أو عدمها هو الصدق [2] ، ونعني به أنْ يَصْدُق الأديب في التعبير عن عاطفته التي أحس بها فعلاً، وإعلان عقيدته التي اعتقدها... فنحن نطلب الصدق في الأدب ، لأننا نريد من الأدب أن يكون تصويراً أميناً لحقيقة عاطفة الإنسان نحو الوجود ، وسلوكه الحقيقي في تجارب حياته المختلفة ... والصدق الذي نريده من الأديب دائماً أن يقول بلسانه حقيقة ما في قلبه ، فإن قالها فهو صادق بمعنى الصدق الأدبي ، وإن خالف كلامه الواقع ، في بعض الأشياء"[3].

وليس ضرورياً أن يكون الشاعر قد عانى التجربة بنفسه، حتى يكون صادقاً، بل يكفي أن يكون قد لاحظها، وعرف بفكره عناصرها، وآمن بها، ودبّت في نفسه حميّاها، ولا بد أن تعينه دقة الملاحظة وقوة الذاكرة، وسعة الخيال، وعمق التفكير، حتى يخلق هذه التجربة التي تصوّرها عن قرب. على حين لم يخض غمارها بنفسه، والشعراء مختلفون في ذلك ، فبعضهم يجيد فيما يلحظ ويتخيل، وبعضهم لا يجيد إلاّ وصف ما عاناه بنفسه"[1]

---

(1) محمد غنيمي هلال ، النقد الأدبي الحديث ، ص369.

(2) انظر : المصدر نفسه ، ص364.

(3) النويهي ، وظيفة الأدب ، ص48–50.

(1) محمد غنيمي هلال ، النقد الأدبي الحديث ، ص364–365.

فلا بد إذن أن يتوافر في التجربة صدق الوجدان، فيعبر الشاعر عما يجده في نفسه ويؤمن به [2] ، وإلا استحال شعره ضرباً من الصناعة اللغوية، التي يجري فيها وراء المهارة اللفظية ، وتوليد الصور المتكلّفة ، والعبارات المستكرهة ، التي تتمتع بالوزن والموسيقى ولا شيء سواهما ، فلا تثير في أنفسنا أية عاطفة ، وبالتالي لا نتفاعل معها ، بل يصدّنا عنها ما نُحِسُّه فيها من تكلف واستكراه .

ثانياً : التجربة الشعرية في الطوق :

إذا كان أسّ التجربة الشعرية هو الصدق، وهو القسطاس الذي نزن به رجحان التجربة الشعرية وفاعليتها ، فلا بد أن نعرض تجربة ابن حزم في الطوق على هذا المعيار ، لنتبيّن مدى مقاربتها للإجادة والإحسان أو ابتعادها عنه ، وبالتالي مدى وصول الرسالة التي نظنّ أنّ ابن جزم كان يريد إيصالها ؛ وهي – كما يقول د.طه حسين: " أن يعلِّم الشعراء والكتاب خاصة ، كيف يتصورون الحب ، وكيف يصورونه ، وكيف يصفونه في الشعر والنثر [3] أولاً ، ثمّ أن ينقل إلينا صورة عن تجربة الأندلسيين الشعرية في موضوع أو عاطفة الحب بنظرته الخاصة ثانياً.

والحق أن الحكم على قصيدة أو قصائد لأحد الشعراء بالصدق أو عدمه ، لا بد فيه من استقراء شعره ودراسته دراسة عميقة ، تتناول الشعر نفسه ببناه ومكوّناته الداخلية من جانب ، ثم تتناول صاحبه وما أحاط به من ظروف من جانب آخر .

---

(2) المصدر نفسه ، ص366.

(3) طه حسين ، ألوان ، ص117.

ولكنّا مع ابن حزم نستطيع أن نقول – مسبقاً – إنه لم يصدر في شعره عن تجربة صادقة ، وإنما كان ناظماً ، أكثر منه شاعراً يصدر عن عاطفة ، وينطق عن إحساس"[1]

وليس ذلك ادعاء ندّعيه أو جناية نتجناها عليه؛ وذلك أنه قد كفانا مؤونة الاستدلال على هذا الحكم حين قال في مقدمة كتابه: " وسأورد في رسالتي هذه أشعاراً قلتها فيما شاهدته، فلا تنكر أنت ومن رآها عليّ أني سالك فيها مسلك حاكي الحديث عن نفسه، فهذا مذهب المتحلين بقول الشعر، وأكثر من ذلك، فإنّ إخواني يجشمونني القول فيها على طرائقهم ومذاهبهم"[2].

فهو يصرح بأنه يصدر عن أحاسيس غيره ومشاعرهم، وكأنه يمثل دور شاعر القبيلة[3]، ومتى استحالت موهبة الأديب إلى وظيفة، فإنّ ما يقوم بكتابته لا يكون من الأدب في قليل أو كثير، وذلك لأنه يكون مكلّفاً بالكتابة من غير أن يترك نفسه على سجيّتها "[4] فليس من مُهمات الشعر أن يستخدم في المجاملات الاجتماعية ولا أن تتعرض أحاسيس الآخرين ، لأنّ صاحبه في هذه الحالة لا يعدو أن يكون وحدة إخراج لها ، وعندها لا بد أن تكون آثار التكلف والتصنع بادية على نصوصه.

---

(1) انظر: مصطفى عبد الواحد ، دراسة الحب في الأدب العربي ، ج2 ، ص281-282.

(2) ابن حزم ، طوق الحمامة ، ص87.

(3) انظر: مصطفى عبد الواحد ، دراسة الحب في الأدب العربي ، ج2، ص282.

(4) يوسف ميخائيل ، سيكولوجية الإبداع في الفن والأدب ، ص179.

وفي مواضع كثيرة من الطوق ، تكون النصوص ناطقة عن نفسها ، مشيرة بوضوح إلى خلوها من الصدق ، دون حاجة إلى تحليل أو فحص ، حيث يعرض لنا ابن حزم رأيه في قضية ما ، ثم ما يلبث أن يناقض هذا الرأي تمام المناقضة في شعره، ومن خير ما يستدل به على ذلك ما رواه في باب من أحبّ بالوصف أو أحب بسماع النغمة ، يقول: " وهذا كُلُّه قد وقع لغير واحد ، ولكنه عندي بنيان هارٍ على غير أسٍّ " ولكن ، مع وقوفه مثل هذا الموقف الفكري ، إلا أنه يقول في الموقف الشعري :

ويا مَنْ لامَني في حُبِّ مَنْ لَمْ يَرَهُ طَرْفي

لَقَدْ أفْرَطْتَ في وَصْفِكَ لي في الحُبِّ بالضَّعْفِ

فقُلْ : هَلْ تُعْرَفُ الجَنَّة يوماً بِسِوى الوَصْفِ ؟[1]

فها أنت تراه متبايناً تمام التباين بين الموقف الفكري والموقف الشعري ، ومثالٌ آخر على ذلك ، ما رواه في باب من أحبّ في النوم ، من أنّه دخل على أبي السري عمار بن زياد صديقِه ، فوجده مفكراً مهتماً، فسأله عن السبب، فأخبره عمارٌ أنه رأى في منامه جارية ، فاستيقظ وقد ذهب قلبُهُ فيها ، وهام بها، وبقي أيّاماً كثيرة تزيد على الشهر مغموماً لا يهنئه شيء وَجداً، إلى أن عذله ابن حزم ، وقال له:" مِنَ الخطأ العظيم ، أن تشغل نفسك بغير حقيقة، وتعلِّقَ وَهْمَك بمعدومٍ لا يوجد، هل تعلم من هي؟...إنك لقليل الرأي، مصاب البصيرة، إذ تحب من لم تره قط، ولا خُلق، ولا هو في

(1) ابن حزم ، طوق الحمامة، ص117- 118 .

الدنيا، ولو عشقت صورةً من صور الحمام لكنت عندي أعذر [1]" ثم يقول: " فما زلت به حتى سلا وما كاد، وهذا عندي من حديث النفس وأضغاثها، وداخل في باب التمني وتخيل الفكر".

ولكنْ ، كيف كان موقفه في شعره مقابل هذا الموقف الصارم الذي لا يقبل فكرةَ أن يحب الإنسان في منامه ؟ يختتم هذا الخبر بقوله : " وفي ذلك أقول شعراً منه :

يا لَيْتَ شِعْرِيَ، مَنْ كانتْ وكيفَ سَرَتْ؟ أَطَلْعَةَ الشَّمْسِ كانَتْ؟ أَمْ هِيَ القَمَرُ؟

أظُنُّهُ العَقْلَ ، أبْداهُ تَدَبُّرُهُ أو صُوْرَةَ الرُّوحِ ، أَبْدَتْها لِيَ الفِكَرُ

أو صُوْرَةً مَثُلَتْ في النَّفْسِ مِنْ أَمَلِي فَقَدْ تَحَيَّرَ في إِدْراكِها البَصرُ

أو لَمْ يَكُنْ كُلُّ هذا فَهْيَ حادِثَةٌ أتَى بِها سَبَبَاً في حَتْفِيَ القَدَرُ [2]

من خلال هاتين الروايتين يتبين لنا كيف كان ابن حزم متناقضاً بين ما يحمله من فكرة، وما يعبّر عنه في الشعر، وذلك لأنه يحاول أن يتقمّص نفسيّات أصحاب هذه الأخبار، ويعبّر عن أحاسيسهم، وينطق بلسان حالهم، وهذا النوع من الشعر لا يُعد من التجارب الصادقة في شيء ؛ لأنه يجعل من الشعر مهنة أو أداة أو دعاية "

---

(1) يقول د.إحسان عباس : " هذا يدل على أن جدران الحمامات في الأندلس كانت تزين بالصور ، وهنالك حكايات عن فتنة بعض الأندلسيين بالتماثيل ، وفي ذلك دليل على شدة الإعجاب بالجمال،.. قلت: وفي قول ابن حزم ما يشي بفكره الذي ينزع نحو الظاهر الملموس ، أكثر من الباطن الوهمي أو الخيالي.

(2) ابن حزم ، طوق الحمامة ، ص116.

عمادها خلق مشاعر لمجاراة شعور الآخرين ، وليس من شأن هذا الشعر أن ينهض بالفن، أو أن يكشف عن أغوار القلب الإنساني"[1].

وعلى ذلك، فإنني أعد من الغلو قولَ زكريّا إبراهيم: " إنّ أشعار ابن حزم قد اتسمت بطابع الواقعية والعمق ، وعدم التكلف ، كما كانت تصف لنا الكثير من الأحاسيس العميقة ، والمشاعر الصادقة ، دون صنعة أو مبالغة أو إسراف" [2] وقول سعيد الأفغاني أيضاً، مفسراً سبب تفوّق ابن حزم في الأدب :" أما في الأدب خاصة، فيرجع السبب في إجادته وسموّه ، إلى أنّه لم يصف إلا ما شاهد وكابد وشعر به"[3].

وعلى الرَّغم من أن ابن حزم قد اعتذر بأنّ إخوانه يجشمونه القول فيما يعرض لهم ، إلاّ أنّ ذلك ليس مَرْضِيّاً – فيما أظن– بالنسبة له خاصة ، لسببين:

أولهما : أنّ ابن حزم يمتلك من الحاسة النقدية ، والقدرة على البصر بمذاهب الشعراء ، وتمييز حَسَنِ الشعر من رديئه ، ما يجعله مدركاً مدى ما يجنيه التكلّف وعدم الصدق ، ومحاكاة مشاعر الآخرين من جناية على الأدب عامة ، وعلى الشعر خاصة.

---

(1) محمد غنيمي هلال، النقد الأدبي الحديث، ص364.

(2) زكريا إبراهيم، ابن حزم الأندلسي، ص 101، وانظر أيضاً منجد بهجت، الأدب الأندلسي، ص 161–162، وسعيد الأفغاني، ابن حزم ورسالته في المفاضلة بين الصحابة ، ص77–81، وآنخل جنثالث بالنثيا، تاريخ الفكر الأندلسي ، ص75–76.

(3) سعيد الأفغاني، ابن حزم ورسالته في المفاضلة بين الصحابة ، ص77.

ثانيهما : أنه كان لديه مندوحة في الاختيار من التجارب الشعرية الصادقة ، التي كان – دون شك – على اطلاع واسع عليها ، كما كان يمكن أن يكون له يد لا تُكفر على الأدب العربي ، لو أنه اختار لنا من تجارب الأندلسيين الذين سبقوه أو عاصروه ، ما يناسب كتابه .

ولذلك يذهب مصطفى عبد الواحد إلى أنه " قد كان خيراً لابن حزم ولكتابه طوقِ الحمامة ، أن يطلق العنان لنفسه في اختيار الشعر ، والاستشهاد على المعاني التي يوردها بالجيّد من أقاويل الشعراء ، بدلاً من هذا الالتزام بشعره، وهو لا يروق كلّ سامع ، فلا يؤثر بعناصره الإيحائية ، ولا يزخر بالتجربة الصادقة " [1].

ولكنَّ ما قلتـه ،لا يعني أن جميع ما استشهد به ابن حزم يخلو من التجربة الصادقة ، إذ إن له عدداً من النصوص التي استطاع فيها أن يضاهي شعراء الغزل المعروفين ، ولكنها لا تشكل شيئاً ذا بال ، بجانب هذه الكثرة من الشعر المتكلف المصنوع.

ومما يظهر فيه صدق التجربة ، وتوقد العاطفة ، ما قاله في جاريته " نُعم"، مثل:

مُهَذَّبَةٌ بَيْضاءُ كالشَّمْسِ إِنْ بَدَتْ وسائِرُ رَبَّاتِ الحِجالِ نُجُومُ

---

(1) مصطفى عبد الواحد ، دراسة الحب في الأدب العربي ، ج2، ص290.

أَطارَ هَواها القَلْبَ عَنْ مُسْتَقَرِّهِ فَبَعْدَ وُقوعٍ ظَلَّ وَهْوَ يَحُومُ (1)

وقد ماتت هذه المحبوبة، فقال في رثائها:

كَأَنِّيَ لَمْ آنَسْ بِأَلْفاظِكِ الَّتي على عُقَدِ الأَلْبابِ هُنَّ نَوافِثُ

ولمْ أَتَحَكَّمْ في الأمانِي كَأَنَّنِي لإِفْراطِ ما حُكِّمْتُ فيهنَّ عابِثُ (2)

وقال أيضاً في زيارة طيفها له:

أتى طَيْفُ نُعْمٍ مَضْجَعِي بَعْدَ هَدْأَةٍ وَلِلَّيْلِ سُلْطانٌ وظِلٌ مُمَدَّدٌ

وعَهْدي بِها تَحْتَ التُّرابِ مُقيْمَةً وجاءَتْ كما كُنْتُ مِنْ قَبْلُ أَعْهَدُ

فعُدْنا كَما كُنَّا، وعادَ زَمانُنَا كَما قَدْ عَهِدْنا قَبْلُ، والعَوْدُ أَحْمَدُ (3)

فهذه نصوص خالصة من آثار الصنعة والتكلف؛ وذلك أنها قيلت في فترة مبكرة من حياته ، قبل أن يشتغل بالفقه وينهمك في التأليف العلمي ، ثم قبل أن يضع هذا الكتاب (طوق الحمامة) كما كانت في الوقت نفسه صادرة عن تجربة ومعاناة حقيقية ، ولذلك جاءت صادقة ومعبرة عما في نفس صاحبها.

---

(1) ابن حزم ، طوق الحمامة ، ص224.

(2) المصدر نفسه ، ص224.

(3) المصدر نفسه ، ص233.

ثالثاً : مصادر التجربة الشعرية في الطوق :

استشهد ابن حزمٍ بأكثر من مئة مقطوعة كلها من شعره ، لم يورد منها لغيره شيئاً – إلاّ عَرَضاً – وذلك تحقيقاً لقوله في مقدمة كتابه : " ودعني من أخبار الأعراب والمتقدمين، فسبيلهم غير سبيلنا، وقد كثرت الأخبار عنهم ، وما مذهبي أن أنضي مطيَّة سواي ، ولا أتحلى بحَلْيٍ مستعار "[1].

وقد جاء معظم هذه المقطوعات بعد الأخبار والروايات الحُبيّة، أو بعد المعاني النظريّة للحبِّ ، فهو عادة ما يختتم الخبر بقوله : "وفي ذلك أقول شعراً " ثم يذكر الأبيات التي تناسب الخبر أو المعنى الذي يتحدث عنه ، أي أنّ معظم هذا الشعر إنما صُنع مكملاً للروايات والأخبار والأحاديث التي تنثر قبله ، وبالتالي لم يستطع الفكاك منها ، فتحكمت في نصوصه الشعرية ، وأملت عليه مضامينها ، حتى غدا الكثير من النصوص تكراراً لما سبقه من حديث أو خبر .

وإذا كان ذلك كذلك ، فإننا يمكن أن نَعد هذه الأخبار والروايات ، هي المحفزات أو البواعث التي دفعته إلى قول هذه الأبيات ، ولما كانت معظم المقطوعات قد ولدت في ظل هذه الأخبار فإنّ مصادرها هي نفسها مصادر[2] الأخبار.

أولاً : التجربة الغيرية : ويمكن تقسيمها إلى الأقسام التالية :

---

(1) ابن حزم، طوق الحمامة، ص87.

(2) أقصد بالمصادر هنا " البواعث" التي كانت وراء قول ابن حزم للأبيات.

أ. أولها ما يمكن أن نسمِّيَه ب . " **السماع** " ؛ ويكون هذا مصدراً للتجربة الشعرية ، حين تكون المقطوعة واردةً عقب خبر أو قصة سمعها سماعاً ، وذلك بأن يحدِّثَه أحدهم بها ، وقد سبق أنّ أحد أصناف الرواية لديه هو السماع ؛ الذي يكون فيه الخبر مُصَدَّراً ، بقوله: " حدثني ، أخبرني ..." فيورده في الباب المناسب ، ثمّ يعقب عليه بأبيات من إنشائه ، ومثال هذا المصدر قوله : " وأخبرني بعض إخواني عن سليمان بن أحمد الشاعر، أنه رأى ابن سهل الحاجب بجزيرة صقلية، وذكر أنه كان غايةً في الجمال، فشاهده يوماً في بعض المتنزهات ماشياً ، وامرأة تنظر إليه ، فلما أبعد أتت المكان الذي قد أثّر فيه مشْيُهُ ، فجعلت تقبله، وتلثم الأرض التي فيها أثر رجله، وفي ذلك أقول قطعةً، أولها:

يَلوْمونَنِي في لَثْمِ مَوْطِئِ خُفِّهِ ولو عَلِموا عادَ الذي لامَ يَحْسُدُ

فيا أَهْلَ أَرْضٍ لا تَجُودَ سَماؤُها خُذوا بِوَصاتِي تَسْتَ قِلُّوا وتَحْمَدوا

خُذوا مِنْ تُرابٍ واقعٍ فيهِ رِجْلُهُ فذاكَ صَعِيْدٌ طَيِّبٌ لَيْسَ يُجْحَدُ[1]

فهذه المقطوعة جاءت تعقيباً على الخبر السابق لها ، ولا إخال أنها ستُفهم الفهم اللائق بها ،إذا اقتطعت عما قبلها ، وفيها يحاول ابن حزم أن يحاكي تلك المرأة الهيمانة،فيتحدث على لسانها،ويعبّر عما يظن أنه يدور في نفسها، وينقل إلينا صورةً عما تعتقده نحو موطئ خفي محبوبها ، واستطاع في هذا التعليق أن يبث الروح في الخبر ، ويمنحه بعض الطرافة والشاعرية من خلال حسن التعليل ورؤى التبرير.

---

(1) ابن حزم ، طوق الحمامة ، ص232.

ب. وثاني أقسام التجربة الغيرية ، ما يمكن أن نسميه بـ " **المباشرة** "؛ وهي الأحداث التي باشرها ابن حزم بنفسه، واطلع عليها شخصياً دون أن ينقلها إليه أحد، وهي صنفان ؛ أحدهما يقول في مطلعه : " رأيتُ ، شاهدت " والآخر يقول :" أعلم ، أعرف..." فهذه الأحداث أو الأخبار اطلع عليها ابن حزم بنفسه ، ولكن دون أن يشارك فيها ، فهو ينقل إلينا تجربة غيره ، ويُعلّق عليها بشيء من شعره ، كقوله مثلاً : " ولقد شاهدت يوماً مُحبَّيْن في مكان ظنّا أنهما قد انفردا فيه ، وتأهبا للشكوى واستحليا ما هما فيه من الخلوة، ولم يكن الموضع حمى، فلم يلبثا أن طلع عليهما من كانا يستثقلانه فرآني ، فعدل إليّ ، وأطال الجلوس معي، فلو رأيت الفتى المحبّ وقد تمازج الأسف البادي على وجهه مع الغضب ، لرأيت عجباً ، وفي ذلك أقول قطعةً منها :

يُطِيلُ جُلُوْساً وَهْوَ أَثْقَلُ جالِسٍ ويُهْديْ حَديثاً لَسْتُ أَرْضى فُنونَهُ

شَمامٌ ورَضْوى واللُّكام ويَذْبُلٌ ولُبْنانُ والصَّمَّانُ والحَرْبُ دُوْنَهُ" (1)

ج. والقسم الثالث هو " **الاقتراح** " والمقصود ؛ أنّ بعضَ أصدقاءِ ابن حزم ومعارفِه ، كانوا يكلّفونه القول فيما يعرض لهم من مواقف أو مناسبات ، فكان يقول على حسب ما يريدون هم ، لا على ما يشعر به هو، وعلى الرغم من قلة المواضع التي يشير فيها ابن حزم إلى ذلك في الطوق ، إلاّ أنّه أكد وجوده في مقدمته ، حين قال : " وأكثر من ذلك فإنّ إخواني يجشمونني القول فيما يعرض لهم، على طرائقهم

---

(1) ابن حزم ، طوق الحمامة ، ص167.

ومذاهبهم"[1] وقد ذكر بعض الحالات التي قال فيها الشعر بتكليف من غيره ، ومن ذلك أنه خرج هو ورفقةٌ من أصحابه إلى بعض البساتين والرياض ، يقول ابن حزم عنها: " بين جداول تطّرد كأباريق اللّجين ، وأطيار تغرّد بألحان تزري بما أبدعه مَعْبَد والغريض[2] وثمارٍ مهدّلةٍ قد ذُلِّلَتْ للأيدي ، ودنت للمتناوَل ، وكان بعضنا مطرقاً ، وذلك لسرٍّ كان له ، فعرّض لي بذلك، فتداعبنا حيناً، فكلّفت أن أقول على لسانه شيئاً في ذلك فقلتُ بديهة..." ثم يُنشد أبياتاً يبدؤها بوصف البستان، حتى يقول:

تَنَغَّصَ عِنْدي كُلُّ ما قَدْ وَصَفْتُهُ وَلَمْ يُهْنِنِي إِذْ غَابَ عَنِّيَ سَيِّدي

فيا لَيْتَني في السِّجْنِ وَهْوَ مُعانِقِي وَأَنْتُم مَعَاً في قَصْرِ دارِ المُجَدَّدِ

فَمَنْ رامَ مِنَّا أَنْ يُبَدِّلَ حالَهُ بِحالِ أَخيهِ أو بِمُلْكٍ مُخَلَّدِ

فلا عاشَ إِلَّا في شَقاءٍ ونَكْبَةٍ ولا زالَ في بُؤْسى وخِزْيٍ مُرَدَّدِ"[3]

ثانياً : معاني نظرية الحب : ومن مصادر تجربته الشعرية أيضاً ، معاني الحب النظرية ، التي جاء ذكرها في كتب الحب كالزهرة ومصارع العشاق وغيرها ، حيث كان في معظم الأبواب يتحدث عن معاني الحب حديثاً عاماً نظرياً، يؤصل فيه لأحد المعاني أو الأفكار التي تدور في دائرة الحب ، ثم بعد ذلك يستوحي هذه المعاني

---

(1) ابن حزم، طوق الحمامة، ص44.

(2) معْبَد، هو معبد بن وهب المغني، نابغة الغناء العربي في العصر الأموي، مات في عسكر الوليد بن يزيد، انظر : الزركلي، الأعلام ص264/70. والغريض: هو عبد الملك مولى العبلات ، من مولدي البربر، من أشهر المغنين في صدر الإسلام، انظر : المصدر نفسه 156/4

(3) ابن حزم ، طوق الحمامة ، ص236- 237.

لينظمها شعراً ، ومن هنا كانت هي الباعثَ لما يسوقه بعدها من أبيات ، ومن أمثلة ذلك قوله في باب الغدر: " ... ولكثرة وجود الغدر في المحبوب استغرب الوفاء منه ، فصار قليله الواقعُ منهم يقاوِم الكثير في سواهم ، وفي ذلك أقول :

قليلُ وَفاءِ مَنْ تَهوى يَجِلُّ وعُظْمُ وفاءِ مَنْ يَهوى يَقِلُّ

فنادِرَةُ الجبانِ أَجَلُّ مِمَّا يَجِيْءُ بِهِ الشُّجاعُ المُسْتَقِلُّ [1]

فقد استوحى البيتين مما ساقه من حديث نظري عن فكرة أو معنى من معاني الحب ، وهو أن الوفاء القليل من المحبوب يساوي الوفاء الكثير من المحب .

ثالثاً : التجربة الذاتية : والمصدر الأخير من مصادر تجربته الشعرية ، هو التجربة الذاتية، أي أنه هو صاحب التجربة ، الذي مرّ بها ، وحدثت معه شخصياً ، وكانت هي الدافع وراء القول، وقد سبقت الإشارة إلى أنه قد نجح في بعض الأحيان في التعبير عن تجربته الذاتية في الحبّ بسبب توافر عنصر الصدق ، ولكن على كثرة التجارب والأحداث التي يرويها لنا عن نفسه، إلا أنها تدور في أغلبها في باب العلاقات الاجتماعية، والأخوة والصداقة، وما أورده فيها من شعر إنما يدور في معاني العتاب أو الاعتذار أو النصيحة.

ولكنه أيضاً مع ذلك قد قصّ علينا تجربته في الحب في غير موضع من كتابه [1]، ومن هذه المواضع جميعاً يظهر أنه قد عانى تجربة الحب كاملة، بحلوها

---

(1) ابن حزم ، طوق الحمامة ، ص 213 .

(1) انظر: ابن حزم ، طوق الحمامة ، ص130، 184، 194، 196، 216، 219 ، 223 ، 249 .

ومرها، فقد ابتليّ بصدود محبوبه[2] وهجره، والاعتذار إليه[3] كما منع من لقائه فأحس بمرارة ذلك [4] وفجع بموته [5] كما مر بحادثة طريفة وهي أنه قد نُعي إليه بعض من كان يُحب، فجزع لذلك جزعاً شديداً، ثم وصل تكذيب ذلك الخبر فداخله من الفرح والسرور ما جلى سواد الغم عنه، وكسا فؤاده خضرة بعد أن كان لابساً للحداد[6].

ومما قاله في جارية نشأت في دارهم، أحبها حباً مفرطاً شديداً، وسعى عامين أو نحوهما أن تجيبَه بكلمة أو يسمعَ من فيها لفظة ، فما وصل من ذلك إلى شيء البتة ، فقال في ذلك:

"لا تَلُمْها على النِّفارِ ومَنْعِ الـ .م . وَصْلِ ما هذا لَها بِنَكيرِ

هَلْ يكونُ الهِلالُ غَيْرَ بَعِيْدٍ أو يَكُونُ الغَزالُ غَيْرَ نَفورِ [7]"

هذه هي أهم المصادر التي كانت وراء إنشاء ابن حزم لهذه المقطوعات التي استشهد بها في الطوق ، وربما كان لهذه المصادر أثرها الكبير في صبغ غزله بصبغة معيّنة لم تكن لتوجد ، لو لم يحبس قريحته على هذه المصادر .

رابعاً : خصائص التجربة الشعرية في الطوق :

---

(2) المصدر نفسه، ص 249 .

(3) المصدر نفسه، ص 194 ، 196.

(4) المصدر نفسه، ص 216 .

(5) المصدر نفسه، ص 223 .

(6) المصدر نفسه، ص 219 .

(7) المصدر نفسه، ص 251 .

إذا كان لكل تجربة شعرية ملامح أو سمات تظهر في معظم نصوصها فقد كان لتجربة الطوق الغزلية ملامحها العامة التي تكاد تكون صادقة على معظمها.

وقد حاولت عند تقصّي هذه الملامح أن تكون معنويّة ، بمعنى أنها لا تتعلق بالجانب الشكلي الفني – إذ سيتم تناوله في الدراسة الفنية – ومن هذه الخصائص :

التحام النصوص الشعرية بما يسبقها من سير المحبين ، أو معاني الحب العامة ، واستيحاؤها لمضامينها ، حتى أصبح الكثير من هذه المقطوعات تلخيصاً أو سَبْكاً للنّص النثري الذي يسبقها ؛ ولذلك يقول منجد بهجت: " فلا شك أننا لا نستطيع أن ندرس شعر الغزل عند ابن حزم بمعزل عن كتابه الذي يُعد من الكتب القليلة في هذا المجال"[1].

ويلاحظ في الغالب أنّ ابن حزم ينحو إلى تركيز اهتمامه على محاكاة الحادثة وتقليد مجرياتها ، دون عناية بما تثيره في نفسه من مشاعر ، ويتفاوت مدى التزامه بالمقدمات النثرية من نص لآخر، فتارة يكون النّص الشعري نقلاً حرفياً تاماً للمقدمة النثرية، وتارة يتحرّر من هذه الحرفيَّة التَّامَّة ، إلا أنه يستوحي مضمونه وفكرته مما سبق من نصٍّ نثري ، وأستشهد على ذلك بقوله : " وأعرف من كان في جيد حبيبه بعض الوَقَص فما استحسن أغيَدَ ولا غيداء بعد ذلك ، وأعرف من كان أوّل علاقته بجارية مائلة إلى القصر ، فما أحبّ طويلة بعد هذا ، وأعرف أيضاً من هوي جارية

---

(1) منجد بهجت ، الأدب الأندلسي ، ص63.

في فمها فوه لطيف ، فلقد كان يتقذَّر كل فم صغير ويذمه ، ويكرهه الكراهية الصحيحة... وفي ذلك أقول :

مِنْهُم فتًى كانَ في مَحبوبِهِ وَقَصٌ كأنَّما الغِيدُ في عَيْنَيْه جِنَّانُ

وكان مُنْبَسِطاً في فَضْلِ خِبْرَتِهِ بِحُجَّةٍ حَقُّها في القَوْلِ تِبْيانٌ

إنّ المها وبها الأمثالُ سائِرةٌ لا يُنْكِرُ الحُسْنَ فيها الدَّهْرَ إِنْسانٌ

وُقْصٌ، فليس بِها غَيْداءُ واحِدةٌ وهَلْ تُزانُ بِطولِ الجِيْدِ بُعْرانٌ

وآخَرٌ كان في مَحْبوبِهِ فَوَهٌ يقولُ حَسْبِيَ في الأفْواهِ غِزْلانٌ

وثالِثٌ كان في مَحْبوبِهِ قِصَرٌ يقولُ إنَّ ذواتِ الطولِ غِيْلانٌ[1]

ففي هذا النص يلتزم التزاماً تاماً بالأخبار التي ساقها قبله.

ومن سمات تجربة الطوق الشعرية أيضاً ، بروز الثقافات والعلوم المختلفة التي كان يحملها ابن حزم ، من حديث وفقه وجدل وفلسفة وغيرها ، ولا تكاد تجد مقطوعة خلت من آثار هذه الثقافات ، وظهورها بهذا الحجم الكبير، أمرٌ يثير الغرابة إذ من المستساغ أن تظهر في عدد قليل من النصوص ، ولكن أن تكون في معظمها فأمرٌ ينبغي تفسيره وعرضه ، وهو ما سيتم في الدراسة الفنية .

وسمة ثالثة هي ظهور الحِكَم ظهوراً ملحوظاً ، على الرغم من أن ظهورها يكثر في أغراض أخرى غير الغزل ؛ كالرثاء أو الفخر أو الحماسة أو المديح ، أما أن يكثر ظهورها في الغزل فهو أمرٌ له في ظني ما يفسره ؛ ذلك أنّ ابن حزمٍ مُؤَهَّلٌ من الناحية

---

(1) ابن حزم ، طوق الحمامة ، ص 130 – 132.

النفسية ومن الناحية العلمية لظهور الحكمة في شعره ؛ فهو من الناحية الأولى ذو نفس حساسةٍ طموحة ، قد خاضت التجارب ، وعركت الحياة وعركتها ، وذاقت مرارتها ، واستطاعت النفاذ عبر حقائق الأشياء ، فسبرت أغوارها ، وبحثت عن جذورها ، واستخلصت نتائجها .

ومن الناحية الثانية ، كان ابن حزم قد استوعب علوم الأوائل كالفلسفة والمنطق، ودرس علم الكلام، واطلع على تجارب الفلاسفة والحكماء السابقين، وكان له فوق ذلك موقفه الفكري الخاص به من الحياة والناس ؛ ولذلك فكثيراً ما يلجأ إلى الحكمة التي تفرضها عليه طبيعته النفسية والعلمية – كما قلت – لتسويغ موقف عاطفي أو التعليل له ، ومثال ذلك قوله في حكمة فلسفية:

إذا ما وَجَدنا الشَّيْءَ عِلَّةَ نَفْسِهِ فذاك وُجودٌ لَيْسَ يَفْنى إلى الأَبَدْ

وإمّا وَجَدْناهُ لِشَيْءٍ خِلافِهِ فإعدامُهُ في عَدْمِنا ما لَهُ وُجِدْ [1]

وقوله أيضاً :

وأصْلُ عُظْمِ الأمورِ أهْوَنُها ومِنْ صغيرِ النَّوى تَرى الشَّجَرَةْ [2]

وقوله أيضاً:

وقابِلْ أفانينَ الزَّمانِ مَتى يَرِدْ عَلَيْكَ ، فَإِنَّ الدّهْرَ جَمٌّ وُرودُهُ[1]

وقوله:

---

(1) ابن حزم ، طوق الحمامة ، ص 95 .

(2) المصدر نفسه ، ص 113 .

(1) ابن حزم ، طوق الحمامة ، ص150.

وَكَمْ وارِدٍ حَوْضاً مِنَ الموتِ أسْوَدَاً تَرَشَّفَهُ مِنْ طَيِّبِ الطَّعْمِ أبْيَضِ [2]

وقوله:

المَوْتُ أحْلى مَطْعَماً مِنْ هَوًى يُباحُ للوارِدِ والصَّادِرِ [3]

وقوله:

أفعال كُلِّ امْرِئٍ تُنْبِي بِعُنْصُرِهِ والعَيْنُ تُغْنيكَ عَنْ أَنْ تَطْلُبَ الأَثَرا[4]

وغير هذه الحكم كثيرة مبثوثة في ثنايا مقطوعاته الغزلية ، كما أنشد ثلاثين بيتاً من قصيدة قال عنها إنها " محتويةٌ على ضروب الحكم ، وفنون من الآداب الطبيعية" منها :

وَإِنِّي رَأَيْتُ الحَرْبَ يَعْلو اشْتِعالُها ومَبْدَؤُها في أَوَّلِ الأَمْرِ مَلْعَبٌ

وَلِلْحَيَّةِ الرَّقْشاءِ وَشْيٌ وَلَوْنُها عَجيْبٌ وَتَحْتَ الوَشْيِ سُمٌّ مُرَكَّبٌ

وإِنَّ فِرِنْدَ السَّيْفِ أَعْجَبُ مَنْظَرَاً وفِيْهِ إذا هُزَّ الحِمَامُ المُذَرَّبُ

وأَجْعَلُ ذُلّ النَّفْسِ عِزَّةَ أَهْلِها إذا هِيَ نالَتْ ما بِها فِيهِ مَذْهَبٌ

فَذُلٌّ يَسُوقُ العِزَّ أجْوَدُ لِلْفَتى مِنَ العِزِّ يَتْلوهُ مِنَ الذُّلِّ مَرْكَبٌ

ووِرْدُكَ نَهْلَ المَاءِ مِنْ بَعْدِ ظَمْأَةٍ أَلَذُّ مِنَ العَلِّ المَكِيْنِ وأَعْذَبُ [1]

---

(2) المصدر نفسه ، ص172.

(3) المصدر نفسه ، ص201 .

(4) المصدر نفسه ، ص 205 .

(1) ابن حزم ، طوق الحمامة ، ص 192 – 193.

هذا عدا عما ساقه في البابين الأخيرين من الطوق من حِكم مستمدة من ديننا الحنيف.

وسمة أخرى تتبدى لنا في معظم مقطوعاته هي الميل إلى الاستدلال والحجاج المنطقي، وتكاد تكون أكثر السمات ظهوراً في شعره ، وهي نابعة من عقليته وثقافته ولا تكاد تقرأ مقطوعة – على الأغلب– خالية من نوع من الاستدلال والاحتجاج ، وكأن صاحبنا يرى أنه لا بد لكل فكرة يعتنقها ، أو موقف يتخذه من حجّة، حتى ولو كان خاضعاً للذوق أو العاطفة ، ولذلك تكاد أكثر المواقف العاطفية أن تكون لديه قضايا تحاكم بمنطق العقل وتتطلب استدلالاً [2]، وهو يلجأ في هذا الجانب إلى عدة أساليب منها الحكمة التي أشرنا إليها سابقاً ، ومنها أيضاً التشبيه والتصوير ، حيث يستدل على بعض مواقفه، من خلال معارضتها بمواقف مشابهةٍ محسوسةٍ أو معقولةٍ وأسلوب ثالث أيضاً ؛ هو أن يلجأَ إلى معارفه المختلفة ، فيستلَّ منها مواقف ثابتة أو مسلّمات، يحتج بها لرأيه ويدعم بها وجهة نظره، ومن ذلك أنه أراد مثلاً أن يبين أنَّ المحبّة سرت على مهل ، فتمكنت في النفس ، ولم تكن آنية الحدوث ، بنت ساعتها ، فقال في ذلك :

مَحَبَّةُ صِدْقٍ لم تَكُنْ بِنْتَ ساعَةٍ ولا وَرِيَتْ حينَ ارتِيادٍ زِنادُها

ولكِنْ على مَهْلٍ سَرَتْ وَتَوَلّدَتْ لِطولِ امْتِزاجٍ فاسْتَقَرَّ عِمادُها

فَلَمْ يَدْنُ مِنْها عَزْمُها وانْتِقاضُها ولَمْ يَنْأَ عَنْها مُكْثُها وازْدِيادُها

---

(2) المصدر نفسه ، ص79 ، (دراسة المحقق) .

يُؤَكِّدُ ذا أنّا نَرى كُلَّ نَشْأَةٍ تَتِمُّ سَريعاً عَنْ قَرِيْبٍ مَعادُها[1]

وواضح كيف استدل في البيت الأخير على صحة رأيه من خلال النظرية التي يؤمن بها الناس ، وهي أنّ ما يأتي سريعاً يذهب سريعاً ، وواضح أيضاً استخدامه جملة (يؤكِّد ذا) وهي عبارة يستخدمها أهل الجدل والمنطق .

ومن السمات التي نلمحها في شعره أيضاً ، الجنوح إلى الإيضاح والتفصيل ، فهو ينزع في معظم النصوص نحو الوضوح والكشف ، ولأجل ذلك يفصل المعنى ، وربما يغرق – أحياناً – في شرحه وتوضيحه ، حتى يتركَه عارياً ليس عليه أيّ قدر من الاستتار ، ومن ذلك قوله مثلاً:

كَذلِكَ فِعْلُ السَّامِرِيِّ وَقَدْ بَدا لِعَيْنَيْهِ مِنْ جِبْرِيلَ إِثْرٌ مُمَجَّدٌ

فَصَيَّرَ جَوْفَ العِجْلِ مِنْ ذلِكَ الثَّرى فَقامَ لَهُ مِنْهُ خُوارٌ مُمَدَّدٌ [2]

فقد استفاد ابن حزم من الإشارة إلى السامريّ ، ولكن ليته توقف عند إيحائها، وإنما أصرّ على كشف المعنى ، وملاحقته بالتوضيح حتى أذهب جاذبيته ، ويمكن تمثيل ذلك على النحو التالي:

السامريّ (الإشارة الأولى) ←بدا لعينيه من جبريل أثر ممجد ←فصير جوف العجل من ذلك الثرى ←فقام منه خوار ممدّد.

---

(1) ابن حزم ، طوق الحمامة ، ص 125.

(2) المصدر نفسه ، ص 233.

فهو يذكر قصة السامريّ كلَّها ، بدون أن يترك للقارئ أي دور في إعمال ذهنه، ولا شك أن تعقب المعنى بهذا الشكل إلى درجة فضحه ، يترك الشعر دون أدنى تأثير في المتلقين؛ لأنّ " ما كان سهلاً ، ومعناه مكشوفاً، فهو من جملة الرديء المردود"[1] والعكس صحيح ، فإنه " من المركوز في الطبع ، أنّ الشيء إذا نيل بعد الطلب له ، أو الاشتياق إليه ، معاناة الحنين نحوه ، كان نيله أحلى ، وبالمزيَّة أولى، فكان موقعه من النفس أجلّ وألطف ، وكانت به أضنَّ وأشغف "[2].

وشاهد آخر على هذا التفصيل والتوضيح، قوله متغزلاً في بعض من كان يحب، وقد ضمّه معه مجلس :

وَدِدْتُ بِأَنَّ القَلْبَ شُقَّ بِمُدْيَةٍ وَأُدْخِلْتِ فِيْهِ ثُمَّ أُطْبِقَ في صَدْري

فَأَصْبَحْتِ فِيْهِ لا تَحِلِّيْنَ غَيْرَهُ إلى مُنْتَهَى يَومِ القِيامَةِ والحَشْرِ

تَعِيْشِيْنَ فيهِ ما حَيِيْتُ فَإِنْ أَمُتْ سَكَنْتِ شَغافَ القَلْبِ في ظُلَمِ القَبْرِ [3]

فهو يلاحق المعنى، ويتعقبه منذ البيت الأول، ليكشفه كشفاً تاماً، ويمكن تمثيل ذلك على النحو التالي:

أنّ القلب شق ← بمُدْيَةٍ ← وأدخلت فيه ← ثم أطبق ← في صدري

فأصبحت فيه لا تحلين غيره.

وفي موضعٍ آخر يقول :

---

(1) أبو هلال العسكري ، الصناعتين، ص79.

(2) الجرجاني،أسرار البلاغة، ص139.

(3) ابن حزم، طوق الحمامة، ص184.

مَعْهودُ أَخْلاقِكَ قِسْمانِ وَالدَّهْرُ فِيْكَ اليَوْمَ صِنْفَانِ

فَإِنَّكَ النُّعْمانُ فيما مَضَى وَكَانَ لِلنُّعْمَانِ يَومانِ

يَوْمُ نَعِيْمٍ فِيْهِ سَعْدُ الوَرَى ويَوْمُ بَأْسَاءٍ وَعُدْوانٍ (1)

وتعقب المعنى في هذه الأبيات جاء على النحو التالي :

فإنك النعمان ←— فيما مضى ←— وكان للنعمان يومان ←— يوم نعيم + يوم بأساءٍ وعدوان .

فقد كان باستطاعة ابن حزم أن يستغلّ هذه الإحالة إلى النعمان دون حاجة إلى تفصيلها وتوضيحها بهذا الشكل ، لأن أمر فهمها موكول إلى القارئ وثقافته . وليس على الشاعر أن يقدّم شعره دون أي إثارة من غموض؛لأنه في هذه الحالة يفقد صفة الشعر إلى صفة النظم .

ومن خلال تلك المواضع الثلاثة، ومواضع كثيرة غيرها ، نستطيع أن نقول : إنه كان من الخير لابن حزم أن يكتفي بالإشارة الأولى إلى المعنى، ويترك ما بعدها لأنه أصبح حشواً لا خير فيه ، ولا فائدة منه ، سوى رصف البيت بالألفاظ تدرجاً عليها نحو القافية .

ومن أبرز السمات أو الملاحظات التي يمكن أن نلاحظها على نصوص ابن حزم أنّها خلت من آثار التفكير الظاهريّ مضموناً لا شكلاً؛ أي أنّنا لم نجد له نظرية غزلية تتفق ومذهبه الذي يتناول الأمور على ظواهرها دون تأويل أو استبطان، على

---

(1) ابن حزم ، طوق الحمامة ، ص202 – 203 .

الرغم من أنني كنت أظن ظناً أقرب إلى اليقين بأنّ آثار الفكر الظاهري سوف تظهر جلية في نظراته إلى الحب والمحبين، وبأنّ ابن حزم سوف يخرج لنا بموقف غزلي يخالف ما ألفناه من شعر غزلي.

وأما ظهور الألفاظ والمصطلحات الفقهية في شعره ، فليس دليلاً على تأثر غزله بالفكر الظاهري إلا من ناحية شكلية ، لا تمس روح الشعر، وما نريده هنا هو تأثر المضمون بهذا الفكر ؛ بمعنى أن يكون قد شكل نظرية مستقلة متناسبة معه .

وربما كان سبب ذلك أنّ الحب عاطفة إنسانية ، ترتبط بالنفوس ، وتتعلق بالبواطن، ولا يمكن لأي مفكر مهما كان يحاكم الأشياء بحسب ظواهرها أن يتجاهل هذه الحقيقة ، ولذلك وقف ابن حزم أمامها مسلماً دون عناد أو مكابرة ، حتى إنه وصل في بعض نصوصه في الطوق إلى ما يناقض الفكر الظاهري ، إذ يظهر في بعض شعره جانب دقيق قد نسميه الجانب الباطني ، كان يهرب إليه أحياناً من قسوة الظاهر وحدّته ، وينقل معاني التنزيه والتوحيد، ويتأول الأشياء على غير ظاهرها ، حتى كان بعض أصدقائه يسمّي قصيدة له " الإدراك المُتَوَهَّم" وفيها يقول:

تَرى كُلَّ ضِدٍّ بِهِ قائِماً فَكَيْفَ تَحُدُّ اختِلافَ المَعَاني

فَيَا أيُّها الجِسْمُ لاذا جِهَاتٍ وَيَا عَرَضاً ثابِتاً غَيْرَ فانٍ

نَقَضْتَ عَلَيْنا وُجوهَ الكَلامِ فَما هُوَ مُذْ لُحْتَ بِالمُسْتَبانِ (1)

وتجده وهو المتمسك بأشد أنواع التنزيه، يقول:

---

(1) ابن حزم، طوق الحمامة، ص100.

أَمِنْ عالَمِ الأَمْلاكِ أَنْتَ أَمْ إِنْسِيُّ ؟ أَبِنْ لِيْ فقد أزرى بتمْيِيْزِيَ العِيُّ

أَرى هَيْئَةً إِنْسِيَّةً غيرَ أَنَّهُ إِذا أُعْمِلَ التَّفْكِيْرُ فالجِرْمُ عُلْوِيٌّ

وَلَا شَكَّ عِنْدي أَنَّكَ الرُّوْحُ ساقَهُ إِلَيْنا مِثالٌ في النُّفوسِ اتِّصالِيٌّ

وَلَوْلا وُقُوْعُ العَيْنِ في الكَوْنِ لَمْ نَقُلْ سِوى أَنَّكَ العَقْلُ الرَّفيعُ الحَقيقِيُّ [2]

ومن تأمَّل هذا اللون من الشعر في موضوع الحب خاصة ، وجد أنَّ ابنَ حزم الظاهريَّ المتشدِّدَ قد بلغ فيه مشارف التصوُّف الباطنيِّ – لكن عن طريق التأمل الفكري– وهو في هذا الجانب المستمد من الوهم ، متأثِّرٌ بطريقة أبي إسحاق النظام ومعجبٌ بها"[3].

تلك هي أهم الملاحظات التي استطعت أن ألاحظها على تجربة ابن حزم ، ولعلّ هناك سمات أو ملاحظات عامة أخرى سيأتي الحديث عنها في الدراسة الفنية.

خامساً : رأي في تجربة الطوق الشعرية :

ليس المقصود هنا الحُكم على تجربة الطوق الشعرية بالنجاح أو الفشل، فليس ذلك أصلاً من غرض هذه الدراسة، ولكن المقصود هو تسجيل رأي الباحث الذي خرج به بعد استعراضه – فيما سبق – لهذه التجربة من حيث صدقها، وعلاقتها بسير المحبين وأخبارهم، ثم استخلاصه لأهم سماتها المعنوية.

---

(2) المصدر نفسه، ص100.

(3) المصدر نفسه ، ص79 (دراسة المحقق).

وقد كان الدافع وراء كتابة هذه السطور ما رأيته من آراء متعجلة ، وأحكام نقدية مغالية، تفتقر إلى الاستقراء الصحيح ، تجاه تجربة ابن حزم التي تعد ولا شك تجربة لا يجوز إنكارها ، ولكن لا يجوز في الوقت نفسه أن نقول إنها قد بلغت حد الإجادة الذي مكَّن معه أن تعد تجربة مميزة ، وإن كانت تستحق أن تحفظ بين التجارب الغزلية الرائدة في الشعر العربي.

وقد ذكر د.إحسان عباس عدداً من الأسباب التي حالت بين ابن حزم وبين التجويد الشعري ،منها:

"1.إكثاره من القول على البديهة.

2.عدم إيمانه بقيمة الشعر في باب العلوم المقربة إلى الله تعالى.

3.عدم تدقيقه في اختيار الألفاظ ذات الوقع الجميل على النفس

4.اعتقاده أنّ الشعر ميدان يصلح لكل موضوع.

5.استبحاره في الفقه والجدل والحديث ، وغلبة طرائقه في هذه العلوم على الشعر"[1].

وهنا يمكن أن نضيف إلى تلك العوامل ؛ أن تجربة ابن حزم الشعريّة كانت خاضعة تماماً للعقل ، بمعنى أنه (أنتجها) وهو مدركٌ تمام الإدراك لتفاصيلها ، متنبه إلى جميع خطواتها ، مما أدى إلى طغيان عنصر الفكرة على عناصر التجربة الأخرى، وكان في ذلك كمن يُعِدُّ بحثاً علمياً، بل كان شعره حقاً واقعاً في إطار بحث

(1) إحسان عباس، عصر سيادة قرطبة، ص319.

علمي مُبَوَّبٍ ومُقَسَّمٍ، وبذلك يكون قد سخَّر موهبته الشعرية لخدمة غرض خارج عن الفن ؛ وهو التأليف العلمي.

وقد كان اضطراره إلى توشيح كتابه بمختارات من شعر الغزل ، ليكمل بها طرائفه عن المحبين ، وإصراره على أن تكون هذه المختارات من شعره ، بصفته ممثلاً للشعر الأندلسي ، لقد كان ذلك يقف أيضاً وراء اصطباغ هذه المختارات بالصبغة الجافة للتأليف العلمي ، الذي يقيم المراقبة العقلية الحثيثة على العمل من بدايته إلى نهايته .

ومما يدل على ذلك دلالة واضحة، أنك تجده لا يتلعثم عن القول في أي معنى من معاني الغزل ، حتى إنه ليقول في معنيين متضادين ، أو يقول – كما سبقت الإشارة– مؤيداً لفكرةٍ لا يقتنع بها ، بل إنّ هناك بعض المعاني التي لجأ فيها ابن حزمٍ إلى التقسيم والتفريع إلى أقسام منطقية [1]، وعلى الرغم من ذلك فإنه يمضي قُدُماً في (تصنيع المقطوعات) التي تناسب كل معنًى أو قِسْمٍ ، ومن ذلك قوله مثلاً: " والوداع ينقسم قسمين :

أحدهما : لا يُتَمَكَّنُ فيه إلا بالنظر والإشارة ، والثاني : يُتَمَكَّنُ فيه من العناق والملازمة... وفي الصنف الأول من الوداع أقول شعراً منه:

تَنوبُ عَنْ بَهْجَةِ الأَنْوارِ بَهْجَتُهُ كَما تَنوبَ عَنِ النِّيرانِ أَنْفاسي

وفي الصنف الثاني من الوداع ، أقول شعراً منه :

---

(1) انظر: باب الهجر، وباب البين مثلاً، وغيرهما من الأبواب .

وَجْهٌ تَخِرُّ له الأَنْوارُ ساجِدةً والوَجْهُ تِمٌ فلم يَنْقُص ولم يَزِدِ

دِفْءٌ وشَمْسُ الضُّحى بالجَدْيِ نازِلَةٌ وبارِدٌ ناعِمٌ والشَّمْسُ في الأَسَدِ

ومنه:

يَوْمُ الفِراقِ لَعَمْري لَسْتُ أكْرَهُهُ أصْلاً وإنْ شَتَّ شَمْلَ الرُّوْحِ عَنْ جَسَدي

فَفِيهِ عانَقْتُ مَنْ أهوى بِلا جَزَعٍ وكان مِنْ قبلِها إنْ سِيْلَ لَمْ يَجُدِ

أَلَيْسَ مِنْ عَجَبٍ عَيْني وعَبْرتُها ؟ يومُ الوِصالِ لِيومِ البَيْنِ ذو حَسِدٍ" [1]

كما كان للشعور الديني دور مهم في عدم اهتمام صاحبنا بنتاجه الشعري، إذ أصبح قول الله تعالى في سورة الشعراء: ﴿ وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الغَاوُوْنَ ﴾[2] يشكل لديه هاجساً يمنعه من أن يصرف مزيداً من الجهد والوقت في تهذيب ملكته [3] وتجويد عمله، وتنقيح تجربته، مما يشوبها من عوامل تنأى بها عن إطار الفن الحقيقي، الذي يبعث في المتلقين شعوراً مقارباً لشعور صاحب التجربة، ولذلك فإنه في غمرة خوضه في مسائل الحب، وإنشاد الغزل، لا تنفك نفسه تلومه، فيقول معتذراً عن بعض الأبيات: " ومعاذ الله أن يكون نسيانُ ما درس لنا طبعاً ، ومعصيةُ الله بشرب الراح لنا خُلُقاً، وكساد الهمة لنا صفة، ولكن حسبنا قول الله تعالى – ومن أحسن من الله قيلا –

---

(1) ابن حزم، طوق الحمامة، ص221– 222.

(2) سورة الشعراء، آية 224 .

(3) انظر في موقف ابن حزم المتشدد من الشعر وروايته عند : إحسان عباس، تاريخ النقد الأدبي عند العرب ، ص494 – 495 ، ومحمد رضوان الداية ، تاريخ النقد الأدبي في الأندلس ، ص310 –381 ، ومصطفى عليان، تيارات النقد الأدبي في الأندلس، ص 332 وما بعدها ، وغسان عبد الخالق، الأخلاق في النقد العربي ، ص56– 62 .

في الشعراء : ﴿ ألم تر أنّهم في كل واد يهيمون ، وأنهم يقولون ما لا يفعلون ﴾ فهذه شهادة الله العزيز الجبار لهم..."[1].

وفي خاتمة كتابه يقول أيضاً بلهجة من اجترح ذنباً يرجو مغفرته ، ويخشى تَبِعَتَهُ: " وأنا أستغفر الله مما يكتُبُهُ المَلَكانِ ، ويُحْصِيْهِ الرَّقيبانِ ، مِنْ هذا وشِبْهِهِ ، استغفارَ مَنْ يَعْلَمُ أنَّ كلامَهُ مِنْ عَمَلِهِ ، ولكنَّهُ إنْ لم يكن من اللغو الذي لا يؤاخذ به ، فهو إن شاء الله من اللمم المَعْفُوِّ، وإلا فليس من السيئات والفواحش التي يُتَوَقَّعُ عليها العذاب ، وعلى كل حال ، فليس من الكبائر التي ورد النص فيها " [2].

وينبغي ألا ننسى أنّ هذا الكتاب – أي طوق الحمامة– بما فيه من شعر ونثر؛ إنما جاء تلبية لرغبة صديق محب ملهوف ، وهذا يعني أنه لم يكن بركنيه – شعراً ونثراً– نتيجة دافع ذاتي، وإنما جاء نتيجة تكليف، وبالطبع فإنّ الشعر إذا أنشئ لتلبية رغبة أحد الناس ، سيغدو عبارة عن إنتاج صناعي كإنتاج أية بضاعة، خالياً من أية مشاعر، وبالتالي فإن هذا النوع من الشعر سيكون أدنى مرتبة مما قيل على السجيّة، وبدافع من نفس صاحبه ، هذه ملاحظات أحببت أن أذكرها ، متعلقةٌ بتجربة ابن حزم ، لعلها تكون أداة لتقويم النظرة إلى شعره فيما بعد .

---

(1) ابن حزم ، طوق الحمامة ، ص211 .
(2) المصدر نفسه ، ص 308 .

المبحث الثالث

الموقف النقدي في الطوق : (جدل النقد والشعر**)**

أظنّ أنه مما يتّصل بجانب الشعر في طوق الحمامة، جانب النقد والتذوق الفنّي، حيث نجد لابن حزم العديد من الملاحظات والآراء والتعليقات النقدية، التي تدل على أنه لم يكن يكتفي بالعرض والتمثيل ، وإنما كان يحاول الكشف عن جوانب التميّز والإجادة في شعره ، من خلال مقارنته بشعر غيره، حين يتيسر له ذلك .

وابن حزم يُعَدّ أحد أعظم النقاد الأندلسيين في القرن الخامس الهجري " وقد كانت مداخله إلى النقد الأدبي كثيرة، منها: سعة اطلاعه، وحفظه لتراث الأندلس الشعري، وذكاؤه الذاتي، وذوقه المرهف، ودراسته للفلسفة والمنطق، وشعوره بالأندلس، وحبه لها، ودفاعه دونها، وعدالته إذا شاء الإنصاف، وتخلى عن الموقف الدفاعي، واطلاعه على طرائق النقد عند المشارقة"[(1)].

وقبل أن أعرض لتلك اللمحات النقدية، تجدر الملاحظة أنها جاءت غالباً في إطار تزكية ابن حزم لشعره، وإدلاله بمقدرته، ومحاولته أن يبرز عناصر التفوق والسبق في نصوصه، وليس هذا بمستغرب ؛ إذ أظن أنّ طوق الحمامة كلَّه كان خطوة مبكرة ضمن حملته الدفاعية عن الأندلس وأدبائها ، ومحاولته إبراز مكانتهم في مقابل الأدب المشرقي الوافد ، ولذلك فهو يرفض أن يستشهد بأخبار الأعراب والمتقدمين لأن طرائقهم وأساليبهم، ونمط حياتهم، يخالف في روحه وجوهره ما كان عليه أهل الأندلس،

---

(1)

كما أنّ ابن حزم يضيق بالتقليد، ولا يحبّ الاتباعية الصارمة، ويسعى إلى التحرر ما وجد إلى ذلك سبيلا، ولهذا فهو يستأثر بشعره، ويُقدمه.

ويمكن أن تقسم ملاحظات الطوق النقدية إلى قسمين ، **القسم الأول** : ما جاء دالاً على معارف ابن حزم النقدية، واطلاعه الواسع على مذاهب الشعراء وأساليبهم، ومعرفته بتجاربهم، في المعاني المختلفة للغزل، ومن أمثلة ذلك قوله في باب علامات الحب: " والسهر من أعراض المحبين، وقد أكثر الشعراء في وصفه وحكوا أنهم رعاة الكواكب ووصفوا طول الليل" [1]، وقوله في باب الرقيب: " ثمّ رقيبٌ على المحبوب... وهذا الرقيب هو الذي ذكرته الشعراء في أشعارها" [2] وتتكرر لديه عبارات من مثل:" وللشعراء في علة مزار الطيف أقاويل بديعة..." [3] وفي باب السلو يقول: " وللشعراء فنٌّ من الشعر يذمون فيه الباكي على الدّمن ، ويثنون على المثابر على اللذات..." [4] ويقول في باب قبح المعصية: " وإنّ للشعراء من لطف التعريض عن الكناية لعجباً"[5].

فهذه لمحات تدلّ بوضوح على أنّ صاحبها كان مسلحاً بأدوات الناقد الأدبي، مطلعاً على تراث العرب الشعريِّ عامة، والغزلي خاصة، مدققاً في طرائق الشعراء في كل معنى جزئي من معاني الحبّ.

---

(1)

كما أنّ معرفته بالشعر لا تقف عند هذه الحدود، بل إنه أحياناً يذكر بعض الشعراء، وما تميّز به شعرهم، كأبي إسحاق إبراهيم بن سيار النظام، رأس المعتزلة، الذي يُكْثِرُ في شعره أن يخاطب المرئيَّ في الظاهر خطاب المعقول الباطن [1]، وأبي نواس الحسن بن هانئ الذي كان يُكْثِر من ذمّ الدّمن ، والحث على اللذات، وهو كثيراً ما يصف نفسه بالغدر الصريح [2] ، كما نجد ذكراً للبحتري وأبي تمام [3]ويوسف بن هارون الشاعر الأندلسي المعروف بالرمادي، الذي رأى عند باب العطارين جارية أخذت بمجامع قلبه ، وتخلل حبّها جميع أعضائه ، وهي خلوةُ التي يتغزّل بها في أشعاره[4].

ويلاحظ هنا أنّ جميع الشعراء عباسيون ، وأحدهم أندلسي ، ولم يذكر من شعراء العصر الجاهلي أو الأموي أحداً، ولعله كان يقصدهم بالأعراب والمتقدمين ، فضلاً عن أنّ الشعراء العباسيين أقرب حضارياً إلى الأندلسيين .

والقسم الثاني من الملاحظات النقديّة ، يدخل ضمن التوجيه النقدي ، بمعناه المعروف ، حيث نجد لديه بعض الآراء أو المواقف حول قضايا معينة في الشعر ،

---

(1) ابن حزم ، طوق الحمامة ، ص99.

(2) المصدر نفسه، ص254.

(3) المصدر نفسه، ص233- 234.

(4) المصدر نفسه، ص120- 122(باب من أحبّ من نظرةٍ واحدة) وقد ورد ذكرها في بيتٍ من شعره، وهو:

خلا ناظري من نومِه بَعْدَ " خلوةٍ" متى كان مني النوم ضربة لازم

ديوانه، ص121، ويبدو أن حبه لها من نظرة واحدة، العكس على غزله، ولذلك فهو يكثر من وصف العيون وفعلها في المحبين، وهو مفتون بالجمال الجسدي مما جعله يلتفت أول ما يلتفت إلى الوجه والجسم، ويركز عليهما في أوصافه وبخاصة الوجه، انظر دراسة محقق الديوان، ص43.

وأكثر هذه الآراء تردّداً ما يتعلق بقضية الصدق، وهو يقصد به هنا ، عدم الغُلوِّ في تصوير المعاني أو التعبير عنها ، إلى درجةٍ تَخْرُجُ بها عن الحد المعقول، وهو نفسه ما يسمى بالصدق التصويري أو(صدق التشبيه) عند ابن طباطبا ، وهو يعني أن على الشاعر أن يتعمّد الصّدق والوُفْقَ في تشبيهاته، فإذا خرج الشاعر عن الصدق ، انتقل إلى الغلو والإفراط[1].

وابن حزم في خاتمة رسالته يقول مخاطباً صديقه: " ولم أمتنع أن أورد لك في هذه الرسالة أشياء يذكرها الشعراء، ويكثرون القول فيها، مُوْفيات على وجوهها، ومُفْردات في أبوابها، ومُنْعمات التفسير، مثل الإفراط في صفة النحول، وتشبيه الدموع بالأمطار ، وأنّها تروي السُّقَّار ، وعدم النوم البتّة ، وانقطاع الغذاء جملةً إلا أنها أشياء لا حقيقة لها، وكذبٌ لا وجه له، ولكل شيءٍ حد ، وقد جعل الله لكل شيء قدرا "[2].

ولذلك فإنه يقف عند بعض المعاني، ويعلق عليها من هذا الجانب، فلا يرضى أن يخالف الشاعر الحقيقة ، ويخرج عن حدّ الواقعيِّ المألوف ، الذي ترضى به الطبيعة الإنسانية ، فهو يحتج على بعض الشعراء الذين تمنوا البين ، ومدحوا يوم النوى، لأجل التقاء أحبابهم، فيقول معلقاً على هذا الموقف: " وما ذاك بحسن ولا

---

(1) إحسان عباس، تاريخ النقد الأدبي، ص132.

(2) ابن حزم، طوق الحمامة، ص307.

صواب، ولا بالأصيل من الرأي، فما يفي سرور ساعةٍ بحزن ساعات، فكيف إذا كان البين أياماً وشهوراً؟ وهذا سوءٌ من النظر، ومُعْوَجٌّ من القياس"[1].

وفي باب القنوع يقول : " وللشعراء فنٌّ من القنوع ، أرادوا فيه إظهار غرضهم ، وإبانة اقتدارهم على المعاني الغامضة ، والمرامي البعيدة، وكلٌّ قال على قدر قوّة طبعه، إلا أنه تحكُّمٌ باللسان، وتَشَدُّقٌ في الكلام، واستِطالةٌ بالبيان، وهو غير صحيح في الأصل .

فمنهم من قنع بأن السماء تظلّه هو ومحبوبه، والأرض تقلهما، ومنهم من قنع باستوائهما في إحاطة الليل والنهار بهما، وأشباه هذا، وكلٌّ مبادر إلى احتواء الغاية في الاستقصاء، وإحراز قصب السبق في التدقيق، ولي في هذا المعنى قولٌ لا يمكن لمتعقّب أن يجد بعده مُتناولاً، ولا وراءه مكاناً، مع تبييني علّة قرب المسافة البعيدة، وهو:

وقالوا: بَعِيْدٌ، قُلْتُ: حَسْبِي بِأَنَّهُ مَعيْ في مَكانٍ لا يُطيْقُ مَحِيْداً

تَمُرُّ عَلَيَّ الشَّمْسُ مِثْلَ مُرورِها بِهِ، كُلَّ يَومٍ يَسْتَنِيْرُ جَديْداً

فَمَنْ ليسَ بَيْنِي في المَسِيْرِ وَبَيْنَهُ سِوى قَطْعِ يَوْمٍ هَلْ يَكونُ بَعيداً

وَعِلْمُ إلهِ الخَلْقِ يَجْمَعُنا مَعَاً كَفى ذا التَّدانِي ما أُرِيْدُ مَزِيْداً [2]

---

(1) ابن حزم ، طوق الحمامة ، ص221.

(2) المصدر نفسه، ص237– 238.

ففي هذا النص يرى أنّ عدم صدق الشعراء ، يكمن في عدم قدرتهم على استقصاء المعنى واستيفائه والتدقيق فيه، ولذلك جاءت تجاربهم غير صحيحة في نظره.

ولكنّه يبدو متناقضاً مع موقفه السابق من الشعراء، إذ على الرغم من حرصه على مخالفة مذاهبهم، وتوليد طرائق جديدة، وأساليب طريفة تفارق ما درجوا عليه نظرياً وتطبيقياً، إلا أنه يقول في الطوق مبيّناً فضل المتقدّمين من الشعراء: " ... وأنا أقول، من غير أن أشبّه شعري بأشعارهم، فلهم فضل التقدم، وإنما نحن لاقطون، وهم الحاصدون، ولكن اقتداءً بهم، وجرياً في ميدانهم، وتتبعاً لطريقتهم التي نهجوا وأوضحوا!!" [1] وفي موضع آخر يقول: " ... ولكنّ شذوذ القائل للشعر عن مرتبة الشعر خطأ"[2].

ألم يرفض أخبار الأعراب والمتقدمين ؟ ألم يعِب على الشعراء إفراطهم وغلوهم؟ ثمّ ألم يَقْصر كتابه على شعره فقط دون شعر غيره ؟ ولكن ، لِمَ يظهر هذا التناقض بين الموقفين لديه ؟.

أظن أنه كان – أثناء تأليفه للطوق – يتنازعه جانبان قويان ؛ جانب ديني ينهى عن الأكاذيب والغلوّ ، والإغراق في الوهم والخيالات، وجانب أدبي يملي عليه أن يحاكي طرائق الشعراء وأساليبهم ، ويسير في ركاب الفن، ويقبل بمتطلباته .

---

(1)

ومن هنا وإن اقتصر في رسالته على الحقائق المعلومة التي لا يمكن وجود سواها أصلاً على حدّ قوله، إلا أنه يقول:" على أني قد أوردت من هذه الوجوه المذكورة (أي التي خرجت عن الحد الواقعي ، ودخلت في حد الكذب ، ومنافاة الحقيقة) أشياء كثيرة يُكْتَفى بها ، لئلا أخرج عن طريقة أهل الشعر ومذهبهم "[1]

ومن المسائل النقدية البلاغية، مسألة تعدد التشبيهات في البيت الواحد ، حيث كان ابن حزم يرى في التشبيه المتعدد جانباً للتميّز ، فكلما كثرت التشبيهات في البيت ، كان أكثر جودة وإبداعاً، وهو بهذه النظرة يذهب مذهب النقاد العرب القدماء الذين كانوا يرون أنّ من بديع التشبيه قولُ امرئ القيس :

له أَيْطَلا ظَبْيٍ ، وساقا نَعامَةٍ وإِرْخاءُ سِرْحانٍ ، وتَقْرِيْبُ تَتْفُلِ

لأنه شبَّه أربعة أشياء بأربعة أشياء في بيت واحد ، وكذلك قول المرقش :

النَّشْرُ مِسْكٌ والوُجوهُ دَنانِيْرٌ وأطْرافُ الأَكُفِّ عَنَمْ

فهذا تشبيه ثلاثة أشياء في بيت واحد ، ومن غرائب التشبيهات وبدائعها أيضاً قول امرئ القيس:

كَأَنَّ قُلوبَ الطَّيْرِ رَطْبَاً ويابِساً لَدى وَكْرِها العُنَّابُ والحَشَفُ البالِي

لأنه شبه شيئين بشيئين"[2]

أما ابن حزم فإنه يقول في الطوق، مستشهداً بمقطوعة ، ومنها البيت التالي:

---

(1) ابن حزم ، طوق الحمامة ، ص 308 .

(2) العسكري ، كتاب الصناعتين ، ص249– 250.

فَكَأنَّها واللَّيلَ نِيْرانُ الجَوى قَدْ أُضْرِمَتْ في فِكْرَتِي مِنْ حِنْدِسٍ

قال بعدها:" والشيء قد يُذكر لما يوجبه؛ وقع لي في هذه الأبيات تشبيه شيئين بشيئين في بيت واحد ، وهو البيت الذي أوله : " وكأنها والليل" ، وهذا مستغرب في الشعر ، ولي ما هو أكمل منه ، وهو تشبيه ثلاثة أشياء في بيت واحد، وتشبيه أربعة أشياء في بيت واحد، وكلاهما في هذه القطعة التي أوردها" وهي:

كَأَنَّ النَّوى والهَجْرَ والعَتْبَ والرِّضى قِرانٌ وأَنْدادٌ ونَحْسٌ وأَسْعُدُ

نَعِمْنا على نَوْرٍ مِنَ الرَّوْضِ زاهِرٍ سَقَتْهُ الغَوادِي، فَهْوَ يُثْني وَيَحْمَدُ

كأنَّ الحَيا والمُزْنَ والرَّوْضَ عاطِراً دُموعٌ وأَجْفانٌ وخَدٌّ مُوَرَّدٌ

... ولي أيضاً ما هو أتمّ من هذا، وهو تشبيه خمسة أشياء في بيت واحد في هذه القطعة، وهي:

خَلَوْتُ بِها، والرَّاحُ ثالِثَةٌ لَنا وجُنْحُ ظَلامِ اللَّيْلِ مُذْ مُدّ ما انْبَلَجْ

فَتاةٌ عَدِمْتُ العَيْشَ إلاّ بِقُرْبِها فَهَلْ في ابْتِغاءِ العَيْشِ وَيْحَكَ مِنْ حَرَجْ

كَأَنِّيْ وَهِيْ والكَأْسَ والخَمْرَ والدُّجى ثَرًى وحَيًا والدُّرَّ والتِّبْرَ والسَّنَجْ

فهذا أمرٌ لا مزيد فيه، ولا يقدر أحدٌ على أكثر منه، إذ لا يحتمل العروض ولا بنية الأسماء أكثر من ذلك"[1].

وتظهر نغمة إعجاب ابن حزم بشعره، وافتتانه بمقدرته، حيث يشير إلى براعته وتقدّمه، وإحرازه قَصَبَ السّبق في جمعه التشبيهات الكثيرة في بيت واحد[2]، وتتردد هذه النغمة – كما قلت– كثيراً في الطوق.

والنزعة نحو الاستقصاء والجمع والتدقيق، تتكرر لديه، فهو يفتخر أيضاً بأنّ له أبياتاً جمع فيها كثيراً من علامات الحبّ [3]، وقد سبق الاستشهاد بنصّه في معنى القنوع الذي قال فيه إنّه لا يمكن لمتعقب أن يجد بعده متناولاً، ولا وراءه مكاناً.

وقبل أن أختم، لا بدّ أن أشير إلى أنّ تلك اللمحات النقدية الواردة في الطوق، كانت مقدمة لموقف ابن حزم من الشعر في مؤلفاته التالية [4] وهو موقف متشدد، أحسب ابن حزم معه، لو استقبل من أمره ما استدبر لما ألف طوق الحمامة، أو لأسقطه من قائمة كتبه، لما فيه من مخالفة لموقفه الجديد من الغزل خاصة، ومن الشعر عامة.

---

(1)